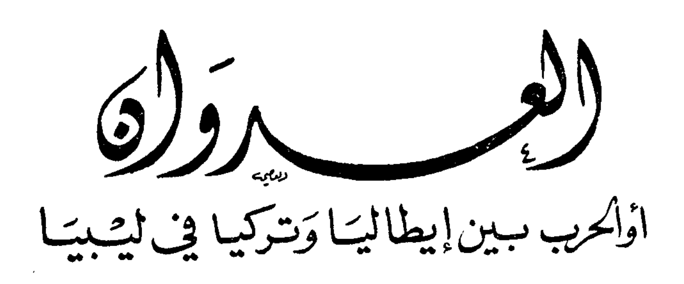
سلسلة التاريخ الليبي

٢



بقلم
محمد مصطفى بازامه

الجزء الأول

منشورات مكتبة الفرجاني
طرابلس - ليبيا

١٩٦٥

العدوان

أو الحرب بين إيطاليا وتركيا في ليبيا

الطبعة الأولى ١٩٦٥

سلسلة التاريخ الليبي

٢

العدوان

أو الحرب بين إيطاليا وتركيا في ليبيا

بقلم

محمد مصطفى بازامه

الجزء الأول

منشورات مكتبة الفرجاني

طرابلس - ليبيا

١٩٦٥

بسم الله الرحمن الرحيم

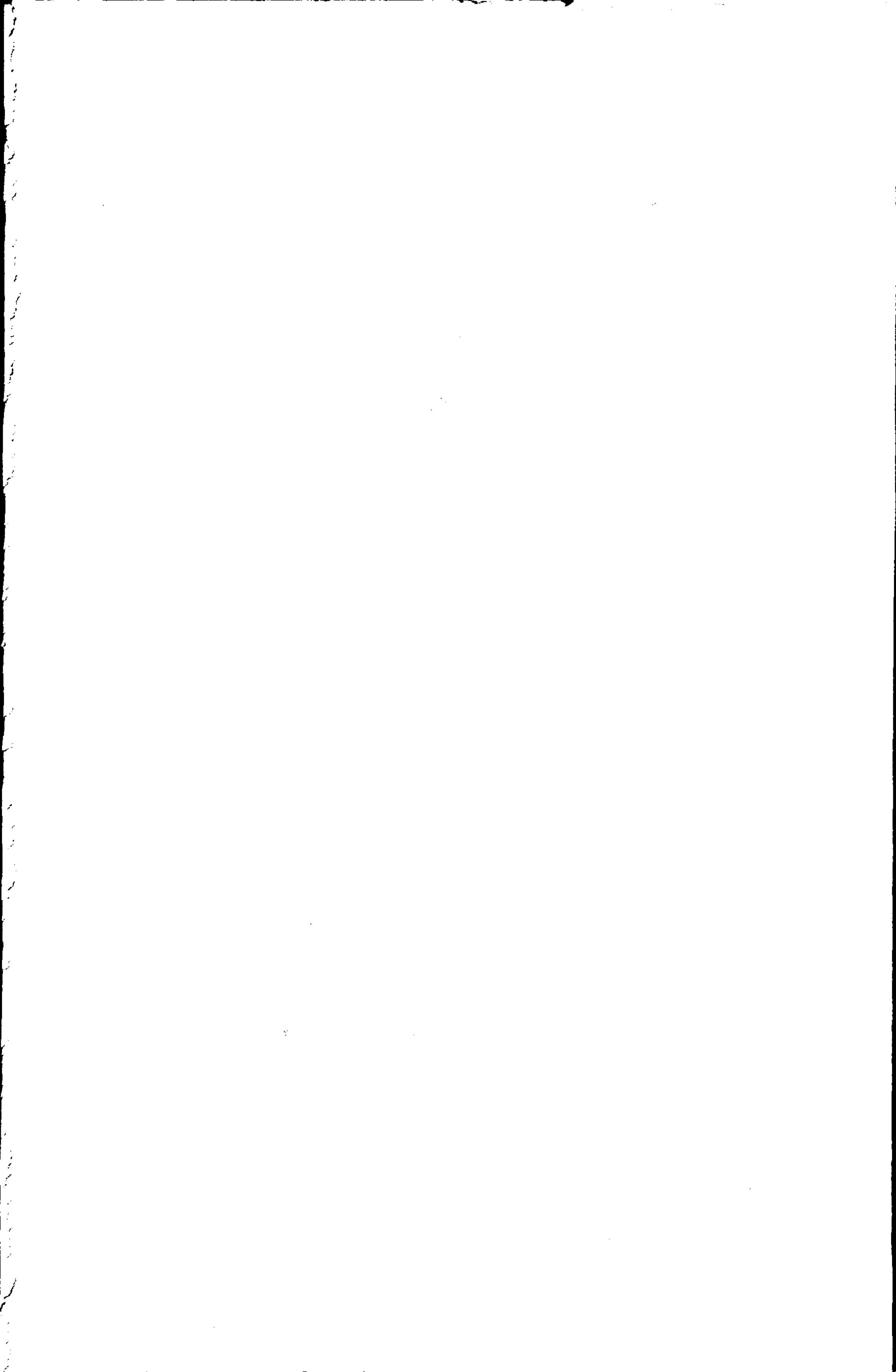


الإهداء

إلى من آمن بربه
وتمسك بعقيدته
ودافع عن وطنه
واستشهد في سبيله

إلى كل شهيد أورثنا مجداً تليداً
أهدي هذه الصفحات من تاريخ أمتنا المجيد !

المؤلف
محمد مصطفى بازامه



مقدمة

هذا الجزء حلقة أخرى أقدمها لك أيها القارىء اليوم ، لتحتل مكانها من سلسلة التاريخ الليبي ، بعد حلقة أخرى كنت قد قدمتها لك منذ أربع سنوات في نفس السلسلة تحت اسم : « بداية المأساة أو التمهيد السياسي للاحتلال الايطالي » ، وكانت بمثابة المقدمة التاريخية لمرحلة من مراحل التاريخ الليبي الحديث تسجل فترة عاشها الشعب الليبي بين بطولات وتضحيات قل لشعب غيره أن يفخر بمثلها ويعتز ؛ صفحات خالدة من مجد ونور ، سطرتها دماء زكية ، لشهداء في الوطنية ، يعدون بعشرات الألوف ، خلدوا هذا الوطن في مئات المعارك التي خاضوها دفاعاً عن كل شبر من أرض هـــذا الذي آمنوا بأن « حبه من الإيمان » ، وأن الموت في سبيله حيـــاة ، وأن فناءهم في حبه خلود .

في هذا الجزء الذي أقدمه لك اليوم ، باسم « العدوان » ، وصف لما عليه حالة الشعب الليبي ، وهو على باب « المأساة » ، وفيه تسجيل لأولى خطوات العدوان ، وبه ذكر لأول خطوة في دنيا الخلود ، وأول درس عملي ، يضربه الأجداد والآباء في الوطنية الصادقـــة ، التي لا تعرف

النظرية الا تطبيقاً ، ولا القول إلا عملاً ، ولا الحياة إلا موتاً في عزة وكرامة وإباء ! .

ولما كان الحديث في هذا الباب سيطول ، ما دمت قد ألزمت نفسي فيه بالتفصيل ، فقد رأيت أن اجزىء البحث الى حلقات متتابعة تمكن القارىء الذي لا وقت له ، من متابعتها ولو على فترات متباعدة من الزمن .

وهذا « الجزء الأول » من العدوان ، يقف بك أيها القـــارىء ، عند بداية الصراع ، وسيتلوه آخر عما قريب بإذن الله ، فهو الموفق والمعين .

محمد مصطفى بازامه

بنغازي ، أكتوبر ١٩٦٥ م .

فهرس الكتاب

صفحة

الفصل الأول

بين الإعلان والعدوان

لماذا أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا ذاتها :

حينما امتدت بريطانيا بنفوذها إلى مصر ، لم تعلن على الخلافة العثمانية حرباً شاملة ؛ وحينما بسطت فرنسا حمايتها على تونس ، من بعد الجزائر ، لم تعلن – هي الأخرى – الحرب على تركيا كدولة ؛ فلماذا خرجت إيطاليا على هذه القاعدة ، باعلانها الحرب على الدولة العثمانية ذاتها ؟ وهي لا تقصد من وراء ذلك غير الاستيلاء على ليبيا وحدها من بين سائر الممتلكات العثمانية، كما ينم على هذا نص إعلان الحرب ، وكما هو واضح مما قدمناه في بداية المأساة من مقدمات لهذا الأمر ، ومن تمهيد له ؟ ... لقد كان لهذا الاتجاه من جانب إيطاليا ، في الواقع مبرراته ودوافعه : فلم تكن إيالة طرابلس الغرب ، ولا كانت متصرفية بنغازي تتمتعان بأية امتيازات إدارية خاصة ، تسمح بإقامة حكومة مستقلة أو شبه مستقلة ، كما هي الحال بالنسبة إلى مصر وتونس والجزائر ، ولم يكن يوجد بأي

منهما جيش محلي خاص ، بل كانتا تداران رأساً من العاصمة العثمانية . والوالي أو المتصرف فيها ، وان كان حاكماً للولاية ، إلا أنه لم يكن يملك من السلطات ما يؤهله لإبرام أية معاهدة أو اتفاق ، بين ليبيا كولاية ، وأية دولة حول أي موضوع .

هكذا لم يجد ساسة إيطاليا أمامهم ، وهم من أصحاب السياسية الواقعية [1] سوى هذا الطريق فسلكوه ، وأعلنوا الحرب على تركيا .

وهنا تبدو لنا مرة أخرى ، طفولة إيطاليا السياسية التي قلنا بعدم نضجها في ميادين السياسة الاستعمارية ؛ فقد كان بإمكانها أن تحاول ، بدلاً من التغلغل السلمي ، في مختلف شئون وأمور الإيالة ، لمدة طويلة من الزمن ، كالمدة التي صرفتها في محاولات ما قبل سنة ١٩١١ ، أن تسلك طريقاً غير مباشر ، كأن : تذكي حماسة الشعب الليبي وتغذي شعوره الوطني إلى أن تدفع به الى الثورة ، وتعمل في نفس الوقت على خلق زعيم من أبناء البلاد ، يكون بما بذلته من أجله ، عميلاً طيعاً لها ، وصنيعة من صنائعها ، يسبح بحمدها ، ويدين لها بالولاء . تفرضه على الشعب وعلى العثمانيين معاً ، ثم تحكم به ومن طريقه حكم بريطانيا لمصر ، وفرنسا لتونس فإن لم تستطع أن تجعل منه الصنيعة الطيعة لها أمكنها أيضاً ضربه بقواتها تحت ستار مساعدة الخلافة في القضاء عليه كما فعلت بريطانيا في السودان المصري آنذاك ، على أن تساوم قبل أو بعد القضاء

---

١ – راجع كتابنا « بداية المأساة » ص، ٦٥.

على الفتنة التي تكون هي ذاتها قـــد أشعلتها ، الدولة العثمانية وأن تنتهي من ذلك إلى حكم ليبيا حكماً ثنائياً إسماً ، وتنفرد هي بالحكم واقعاً . ولو أنها فعلت هذا أو ذاك ، وربما كان في إمكانها أن تفعـــل ، لجنبت نفسها خوض غمار حرب طويلة الأمد ، ضد تركيا أولاً ، ثم ضد أبناء البلاد نفسها ، ولكنها لم تفعل [1] .

وكان بإمكانها كذلك أن تتجاهل وضع الإيالة القانوني الدولي ، فتعتدي على مدنها وقراها، عدواناً مباشراً ، وتفرض سلطانها عليها بقوة السلاح والجند ، دونما إعلان رسمي صريح للحرب على تركيا كدولة . وبالرغم من أن هذا التصرف ، هو بمثابة إعلان الحرب ، إلا أنه في ذات الوقت خلافه ، لأن تركيا « الرجل المريض » بحكم الوضع السياسي الذي كانت تعيشه آنذاك ، كانت ستحتج على العدوان ، ثم تسلم في النهاية ، وبعد أخذ ورد ، بالأمر الواقع ، تجنباً منها للدخول في حرب شاملة ، ليست مستعدة بالتأكيد لخوضها . ولو أن إيطاليا فعلت هـــذا أيضاً لما وجدت تركيا أية صعوبة للتسليم في ليبيا لايطاليا ، إذ أنها ستحتفظ

---

١ - وقد عادت إيطاليا بعد ان تمرست ونضجت بعض الشيء الى محاولة تطبيق هذه الخطة الاستعمارية حينما دخلت في مفاوضات وعقدت اتفاقيات في كل من برقة وطرابلس سمحت بموجبها بقيام الإمارة السنوسية والجمهورية الطرابلسية ولكنها فشلت في اختيار العناصر المفاوضة لأنها لم تسهم في خلقها كزعماء ، فقد اوجدهم الشعب ورفعهم الاخلاص في الكفاح ، وفشلت ايضاً في تقدير الزمن المناسب لأنها كانت تفاوض قوماً اختبروا قوتهم تجاهها ووثقوا بأنفسهم فلم تعد ترهبهم بجيشها الجرار ولا بأسطولها وأسلحتها .

مع التسليم بجزء من كرامتها ، وشيء من ماء وجهها [١] ولكن إيطاليا لم تفعل فدفعت بالإمبراطورية العثمانية المتداعية إلى الحرب دفعاً ، كما اضطرت أن تقف وجهاً لوجه مع الليبيين في ميادين القتال ، وأثارت « القومية العربية » ، والأمم الإسلامية ضدها كدولة متسلطة غاشمة .

ولعل هذا هو ما حذر منه المستشرق كايتاني « عضو دائرة روما » في كلمته بالبرلمان الإيطالي [٢] . ومهما يكن فقد كان لإعلان إيطاليا الحرب على الخلافة العثمانية صداه في العالم الإسلامي والعربي منه بصفة خاصة . وكان له أثره وانعكاساتـــه على السياسة والوضع الأوربي الدولي في المستعمرات الأسيوية الإفريقية .

الاستعداد للغزو

في الواحد وعشرين من سبتمبر سنة ١٩١١ ، عقـد وزير خارجية إيطاليا سان جوليانو Anton. di San Giuliano ، ووزير حربيتها باولو سبينقاردي Paolo Spingardi ووزير البحرية فيها باسكوالي ليوناردي كاتوليكا Pasquale Loeonardi Cattolica ، ووزير خزانتهـــا (المالية) فرانشسكو تديسكو Francesco Tedesco اجتماعـاً مستعجلاً أحيـط

---

١ ــ وقد كانت قضية حفظ ماء الوجه بالنسبة إلى الامبراطورية العثمانيـــة من أهم العقبات التي حالت دون خروج تركيا كدولة من الميـــادين الحربية في الولاية قبل معاهدة لوزان . كما كانت الشغل الشاغل للمفاوضين الأتراك . وقد بدا أثرها واضحاً في ملحق المعاهدة الذي صدر في شكل فرمان يحل به الخليفة الليبيين من بيعتهم له .

٢ ــ راجع بداية المأساة ص .

بالسرية التامة [١] .

والذي يبدو من المصادر الإيطالية التي رجعنا إليها في هذا الموضوع ، هو أن إيطاليا حتى نهاية النصف الأول من شهر سبتمبر ، لم تكن قد عَيَّنَتْ لإقدامها على احتلال ليبيا عسكرياً وقتاً بذاته ، ولو أن الوزارة الإيطالية كانت تستعد لذلك منذ بضعة أشهر . ولما لم يكن قد حدث خلال النصف الثاني من الشهر نفسه ، أي شيء من جانب تركيا يوجب التوتر في العلاقات إلى هذا الحد الذي يحمل إيطاليا على تقديم إنذارها الذي ألحقته سريعاً بإعلان الحرب على هذه الدولة ؛ فقد كان هذا السبب وحده كافياً ليدفع بالمؤرخين إلى الاتجاه للتنقيب في الظروف الدولية بحثاً عما عساه قد يكون دفع بإيطاليا إلى الإقدام على هذه الخطوة المفاجئة والتصميم الغريب على التنفيذ السريع لفكرة الغزو والاحتلال بالرغم من أن إعداد الحملة كان يتطلب المزيد من الوقت ، وبالرغم من أن الموسم كان غير مناسب للقيام بعمليات غزو بحري . وانتهى معظمهم من ذلك إلى إرجاع الأمر إلى رواج شائعة في الأوساط السياسية الدولية العليا تقول بأن المانيا تعمل جاهدة للحصول على مرفإ لها في ليبيا يزود سفنها العاملة في البحر المتوسط بما تحتاجه من الوقود وخلافه مما جعل إيطاليا تخشى أن تسبق إليها كما سبقت في تونس من قبل .

ومهما يكن من أمر فإن اجتماع ٢١ سبتمبر السري كان ـ فيما نعلم ـ

---

١ - Gaetano Cicerone : - La terza colonia italiana, P. 180.

أول اهتمام مباشر وجدي من جانب إيطاليا بالإقدام على حل القضية موضع التنفيذ .

وفي الخامس والعشرين من سبتمبر اجتمع مجلس الوزراء الإيطالي في تمـــام هيئته ، وبرئاسة جوليتي رئيسه ، وكانت المسألة الطرابلسية (الليبية) أهم البنود المدرجة في جدول أعماله . وفي هذه الجلسة ، بيَّن كل وزير من الوزراء الأربعة الذين ذكرنا ، وضع الحكومة الإيطالية فيما يتعلق بوزارته : فتحدث وزير الخارجية عن الوضـــع الخارجي ، واستعرض الموقف السياسي الدولي ، وانتهى إلى أنه لا يعوق إيطاليا عن القيام بعدوان مسلح على ليبيا . وأفصح وزيرا البحرية والحربية عمـــا أنجز من الترتيبات العسكرية لإعداد الحملة،وذكرا كل شيء عن تفصيلات الإعداد والخطة المشتركة للقيام بالغزو المنتظر على تلك الولاية العثمانية الوحيدة التي بقيت للأتراك في شمال إفريقيا كلهـا [1] . وأوضح وزير الخزانة الوضع المالي للدولة ، وأكد أن هذا لا يحول دون الإقدام على تنفيذ خطة الغزو المرتقب ، وأن في إمكان الخزانــة الإيطاليــة العامة أن تتحمل أية مصروفات إضافيـــة طارئة قد تستدعيها الظروف وتحتمها .

---

١ ـ بدأت ايطاليا منذ شهر يونيو ١٩١١ في اتخاذ الترتيبات الادارية والعسكرية لإعداد حملة تقوم بغزو مسلح على ليبيا، وكان من بينها الاستعداد لاعلان التعبئة العامة على نطاق شامل ، وهي تجربة لم يسبق لايطاليا القيام بها منذ حروب الوحدة الايطالية . ومنها اجراء تحركات =

وتوالى النقاش في المسألة بعد ذلك بين رئيس الوزارة والوزراء حول ما نشأ في إيطاليا من تعقيدات في الموقف الداخلي لم تكن متوقعة[١]. ونوقش احتمال تفاقم الحالة عقب الدعوة إلى الإضراب العام الذي دعا إليه الاشتراكيون الإيطاليون ، فكلف وزير الداخلية بمعالجة الموقف الراهن في حزم وبشدة[٢]. ولعله كان قد تم في هذه الجلسة اتخاذ قرار تقديم الإنذار النهائي Ultimatum إلى تركيا ، وتحديد الاتجاه السياسي لإيطاليا فيما يتعلق بقضايا الشعوب البلقانية[٣].

وفي اجتماع آخر عقد يوم ٢٧ من نفس الشهر أكد وزير الداخلية

=عسكرية للوحدات المختلفة تنتهي بها جميعاً إلى المرابطة في اماكن قريبة من المرافىء والخلجان التي تصلح لرسو السفن والناقلات . ومنها إعداد الأسلحة والذخيرة اللازمة للحملة . وفي النصف الثاني من سبتمبر وبعد ان حدد موعد الهجوم ووضعت خطته العامة ، صدرت الاوامر إلى الوحدات المختلفة للجيش لتبقى على أهبة الاستعداد للقيام بعمليات كبيرة ذات شأن خطير ، وإلى وحدات أسطولها لتقوم بمناورات بحرية على نطاق واسع كانت في الحقيقة عذراً تسترت به على اعدادها وتجميعها في مناطق معينة بذاتها . وما ان خرجت من هذه المناورات حتى أمرت بمراقبة عدد من الموانىء الحربية والمرافىء التجارية التي للعثمانيين في ليبيا والبلقان وبقية شواطىء شرق البحر المتوسط .

١ - انظر حول هذا الموضوع الصفحات المقبلة من هذا الكتاب .

٢ - Gactano Cicerone : - المصدر السابق ص ١٢٨ .

٣ - وهي السياسة التي حددت في برقية وزير الخارجية الايطالي الى ممثلي دولته في البلقان وقد قدمنا لها ترجمة كاملة في كتابنا « بداية المأساة » ، وهي سياسة تتفق وما سبق لايطاليا أن التزمت به للدول الكبرى ذات المطامع الاستعمارية في تلك الاقاليم من الممتلكات العثمانية .

أن الاحتياطات الشديدة الصارمة التي اتخذت من قبل قوات الأمن العام قد استطاعت أن تحول دون تفاقم الحالة بنتائجها الخطيرة "[1] .

لم يبق بعد ذلك ما يمنع الوزارة الإيطالية أو يحول بين الحكومة والإقدام على الخطوة النهائية في الموضوع ، سيما وأن الإضراب كان قد أنهي في صباح يوم ٢٨ سبتمبر فاعلنت الحرب على الأتراك في ظهيرة اليوم التالي (٢٩ سبتمبر) .

مما تقدم تدرك أن إيطاليا حينما بعثت بالإنذار النهائي إلى تركيا كانت قد أعدت جميع قواتها واتخذت كامل احتياطها للأمر ، ومع ذلك فإننا نعتقد ــ ولدينا ما يبرر هذا الاعتقاد ــ بأن الحركة الاشتراكية في إيطاليا لو كانت من القوة إلى الحد الذي يمكنها من الصمود لتدابير رجال الأمن ووزارة الداخلية لما أقدمت الوزارة الإيطالية على إعلان الحرب ، ولتراجعت عن موقفها ، وقبلت مبدأ التفاوض الذي كانت قد رفضته مقدماً في إنذارها الأخير متظاهرة بالاقتناع بقبول الضمانات التي قدمها العثمانيون في ردهم عليه "[2] . ولو حدث هذا لتغير وجه التاريخ

---

١ – Gaetano Cicerone المصدر السابق ص ١٨٢ .

٢ ــ وهذا الذي انتهيت إليه واثبته هنا مخالف لما سبق أن أدرجته في ص ٤٢ من كتابي بداية المأساة من ان الشعب الايطالي باجمعه كان مستعداً لقبول فكرة العدوان ومتحفزاً لها . والتي كنت معتمداً فيها على مصادر متأخرة زمناً عن فترة الاعتداء المؤرخ لها ذاتها ، وبالتاليفهي قد كانت تتعمد ـ عن قصد ـ تجاهل المعارضة الايطالية لفكرة الغزو مما أوقعني في الخطأالتاريخي حينما قلت بالاجماع على العدوان . وهو ما أرجع عنه هنا تمشياً مع المنهج العلمي القائل بوجوب الرجوع عن الرأي حينما يتضح خطؤه وعملا بالحكمة العربية : الرجوع إلى الحق فضيلة .

بالنسبة إلى هذه البلاد .[1]

عدوان مفاجىء ، وفساد رأي :

وهكذا أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا بعد أن قدمت إنذارها الذي لم يسبق بسواه ، في مثل قوته على الأقل ، كما لم يتضمن مبرراً واحداً يستوجب هذا التصرف العدواني من جانب إيطاليا . ذلك أن تركيا كدولة ، ورعاياها كأفراد لم يكونوا قد ارتكبوا أي خطإ ولا أقدموا على أي تصرف عدواني معين ضد إيطاليا أو ضد رعاياها والمحتمين بها ، لا داخل ولا خارج الممتلكات العثمانية ، كما لم يكن هناك في اتجاه السياسة العثمانية ما يعرض مصالح إيطاليا أو الجاليات الايطالية لأي خطر . لذلك ، وبالرغم من أن المقاصد والنوايا العدوانية لإيطاليا تجاه ليبيا لم تكن بخافية على الأتراك والليبيين لا في الآستانة ولا حتى في ليبيا ذاتها[2] فإن وزراء وساسة تركيا لم يكونوا يتوقعون أن تقدم الحكومة الإيطالية على خطوة إجرامية كهذه فتعلن في وقت يسود فيه التفاهم الودي بين الدولتين ، وتنعدم الأسباب ، حرباً صريحة على الحكومة

---

١ - حول نص الانذار الايطالي راجع ص ٥٠ - ٥١ ، وحول نص الرد عليه راجع ص ٦١ - ٦٢ - ٦٣ من كتابنا بداية المأساة .

٢ - سبق ان اشرنا إلى هذا الموضوع في بداية المأساة ، وسنتعرض للموضوع مرة اخرى في الاماكن المناسبة من هذا الكتاب .

العثمانية [1] .

واذا نحن قدرنا هذا العامل التاريخي الهام أمكننا القول بأن تركيا أخذت على غرة في هذا الحرب ، وأنها دوهمت بها قبل أن تستعد لمجابهتها عسكرياً ومدنياً ، وليست الحال بالنسبة إلى إيطاليا كذلك، فإنها - كماسبق أن رأينا في أول هذا الفصل - قد أعدت لخطواتها العدة ، واتخذت قبل الإقدام عليها جميع الاحتياطات السياسية ، والترتيبات المالية والعسكرية والمدنية ، الأمر الذي يجعل من تركيا ضحية لاعتداء غادر .

ولكننا مع هذا ، وبالرغم من إدراكنا لوجهة النظر التى كانت جمعية الاتحاد والترقي تقيس بها الأمور فيما يتعلق بوضع ليبيا العسكري [2] ، بالرغم من هذا فاننا لا نعذرها فيما يتعلق بالاستعداد لما عساه قد يحدث من إيطاليا على ليبيا من عدوان ، ذلك أن المطامع الإيطالية في الاستيلاء على هذه الولاية كانت أوضح من شمس الظهيرة ؛ إذ من الخطإ الفاحش التمادي في سياسة المسالمة والمداهنة حينما لا يكون ثمة أمل في التشبث بالسلام خاصة وأن تركيا كانت قد تعرضت من قبل لأكثر من عدوان غادر على ممتلكاتها

---

١ - شعر الكتاب الايطاليون انفسهم من رسميين ومدنيين واساتذة وعسكريين بانعدام هذه الأسباب ، فراحوا يتخبطون في البحث وراء سبب او اسباب يمكن ان تعتبر معقولة لاعلان الحرب غير الطمع الاستعماري ذاته ، ولكنهم عجزوا عن ذلك بل وأثبتوا بتخبطهم وتمسكهم بالتوافه من التعللات والاسباب هذه الحقيقة امام كل باحث في تاريخ هذه الفترة.

٢ - حول هذا الموضوع راجع ايضاً كتابنا بداية الماساة من ص ٤٦ الى ص ٤٩ .

انتهى معظمها بفقدان الامبراطورية لجانب من هذه الممتلكات .

والعجيب في الأمر أن تركيا لم تتخل عن سياسة التشبث بالسلام هذه حتى بعد أن تأكد لديها فشلها وعدم جدواها مع إيطاليا التي لم تبال فأقدمت على القيام بالعدوان الغادر على الولاية حتى بعد أن عدمت الأسباب المبررة . فقد أبرق جلالة السلطان (محمد الخامس) في الثاني من اكتوبر (أي بعد ثلاثة أيام من اعلان الحرب) إلى ملك بريطانيا ، والى إمبراطور ألمانيا ورئيس جمهورية فرنسا وبقية ملوك الدول الأوربية طالباً إليهم التدخل في الموضوع ، وكان أول ما فعلت الوزارة الجديدة التي تسنمت الحكم عقب سقوط وزارة حقي باشا هي الكتابة إلى رؤساء وزارات نفس الدول الأوربية طالبة إليهم التوسط لحل النزاع ، وكان من الطبيعي أن يجيب الملوك ورؤساء الدول على رجاء أو على الأصح استجداء الخليفة العثماني وحكومته ، بالاعتذار عن القيام بالوساطة ، وهم الذين سبق لهم أن قايضوا إيطاليا على ليبيا ، بل وقبض بعضهم مقدماً ثمن موافقته على ذلك العدوان،حتى ألمانيا تلك الدولة الحليفةلتركيا وإيطاليا على السواء لم تخلص فيوساطتها بين الدولتين ، فقد كان جواب الإمبراطور غليوم على الخليفة هو احترامه الشديد لشخصه ، ولكنه أوضح أن انفراد ألمانيا بالوساطة أمر غير مضمون النجاح عديم الفائدة وعلى الرغم من ذلك فان الإمبراطور الالماني قد كلف السفير الالماني في روما بالسعي ومحاولة التدخل للوساطة بين البلدين[1] . وكانت النتيجة

١ ـ محمد فؤاد شكري : ـ السنوسية دين ودولة ص ١١٨ ، الطاهر احمد الزاوي : ـ جهاد الابطال ص ٣٢ وآخرون .

كما توقع الإمبراطور إذ فشلت الوساطة أمام تصميم إيطاليا التي كانت قد باشرت فعلاً القيام بعمليات الغزو والعدوان ، فقد كان أسطولها يستعد لقصف مدينة طرابلس بمدفعيته منذ اليوم الذي أبرق فيه السلطان العثماني بطلبه ذاك .

قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين :

وكانت تركيا قد أعفت سفيرها في روما حسين كاظم باشا من منصبه قبل فترة من توتر العلاقات واعلان الحرب بإيداعه على التقاعد ، وقد حلا للبعض من مؤرخي العرب (محمد فؤاد شكري) رد السبب الحقيقي إلى خيانة حقي باشا لوطنه في هذه القضية ، ولكننا وقد سبق أن ناقشنا موضوعها من قبل في «بداية المأساة» لا نستطيع أن نقره أو نأخذ به لافتقار الاتهام إلى سند مادي أو نص تاريخي صريح يثبت ذلك . وكما هي عادة تركيا ، فقد تباطأت في إجراءاتها فلم تعين سفيراً آخر كبديل له لدى بلاط سافويا حتى توترت العلاقات ونشبت الحرب بين الدولتين .

وكانت إيطاليا هي الأخرى ، قد استبدلت بسفيرها السابق في الآستانة ، الذي أحيل على التقاعد هو الآخر ، المركيز جاروني IL Marchese Garroni ، ولكن هذا السفير الجديد لم يغادر روما فقد تأخر سفره حتى ٢٢ سبتمبر ، وفي هذا التاريخ كانت إيطاليا قد قررت الإقدام على خطوة عدوانية صريحة ضد تركيا ، ولذلك فقد استبقي في بلاده

ولم يغادرها ، ولا استلم مطلقاً منصبه كسفير لبلاده في تركيا .

وقد أثارت صحافة الناسيوناليست ضجة مفتعلة حول إحالة سفير إيطاليا في الآستانة على التقاعد، ونسبت الأمر إلى شيء من توتر العلاقات بين البلدين منشؤه مقاومة الأتراك لسياسة التدخل السلمي الاقتصادي لإيطاليا في ليبيا "[١] .

واستغل أمر عدم وجود سفير لأي من الدولتين لدى الدولة الأخرى حين اعلان الحرب فيما بعد من بعض الكتاب الإيطاليين ــ الذين كان همهم الأول وشغلهم الشاغل تبرير العدوان الإيطالي على ليبيا ــ فعدوه بمثابة قطع للعلاقات الدبلوماسية بين الدولتين ، ثم اعتبروا عدم تعيين سفير عثماني جديد بمثابة التوتر في العلاقات الودية بدأت به تركيا لم يسع إيطاليا الا مجاراتها فيه ، وغالى البعض من هؤلاء فجعله سببا مباشراً برر به العدوان الإيطالي على ليبيا العثمانية . ونسي هؤلاء جميعهم أن عدم وجود سفير لأي من الدولتين لدى الدولة الأخرى لا يعد شيئاً ذا بال ما دامت هناك سفارة وقائم بالأعمال لكل منهما في بلاد الأخرى .

وعلى أثر إعلان الحرب قطعت العلاقات الدبلوماسية كما هو مفروض ، وقابل وزير الخارجية الإيطالي سان جوليانو السفير

---

١ — A. Gaibi : - Manuale di Storia politico - militare delle colonie italiane pag . 202.

الألماني في روما جاقوف Jagov ، وفي هذه المقابلة قبلت ألمانيا ، وبعد أن أصبحت الدولتان في حالة حرب، القيام برعاية المصالح والرعايا الايطاليين في المملكة العثمانية . ولا نعلم مَنْ من الدول المحايدة قبلت القيام برعاية المصالح العثمانية، وحمت الرعايا الأتراك في إيطاليا وإن كان المظنون هو أن المانيا أو النمسا قبلت ذلك بالنظر لما كان آنذاك بين كل من هاتين الدولتين وتركيا من علاقات صداقة ومودة .

سحب الجالية الايطالية من ليبيا

حينما قررت الحكومة الايطالية الاقدام على فرض سلطانها على ليبيا بقوة السلاح ، كان من الطبيعي أن تخاف على رعاياها في تلك الإيالة من التعرض لاعتداء السكان الوطنيين عليهم في اشخاصهم ، فأبرقت إلى قنصلها في طرابلس تطلب إليه اتخاذ الترتيبات اللازمة لتسفيرهم منها . وقد تلقت الحكومة الإيطالية من ممثليها في طرابلس يوم ٢٨ سبتمبر برقية يعلمها فيها بأنه قد تم فعلاً تسفير معظم الجاليات الإيطالية على ظهر باخرة البنك دي روما ، وبأنه لم يبق بالمدينة (طرابلس) سوى بعض الموظفين المدنيين الذين تجمعوا بمبنى القنصلية ، وكذلك بعض الرجال الدينيين ، قالت البرقية عنهم بأنهم سيتم تسفيرهم بواسطة نفس الباخرة التي ينتظر وصولها صباح الغد (٢٩ سبتمبر) [١] .

---

١ – Gaetano Cicerone : نفس المصدر السابق ص ١٨٨ .

أما أفراد الجالية الإيطالية في مدينة بنغازي فلم يغادروا البلاد إلا بعد إعلان الحرب إذ قدمت إلى ميناء بنغـــازي في صباح يوم أول اكتوبر قطعتان من الأسطول الإيطالي همـــا المدرعتان بيسا Pisa وأمالفي Amalfi ، وعقب اتصالات تمت بين قائد الأولى Frespitero والمتصرف العثماني ، والقنصل الإيطالي فيها ، أبحرتا عشية اليوم نفسه (حوالي السادسة مساء) بجميع أفراد الجالية الإيطالية عدا أفراد قلائل من رجال الدين حال وجودهم آنذاك بالفويهات دون إبحارهم ، وعـــدا صحافي إيطالي واحد كان قد جاء إلى بنغازي في ٢٧ سبتمبر خصيصاً ليراسل جريدته بأنباء معارك الغزو حين وقوعها [١] .

وهنا لا أملك إلا أن أتساءل : كيف تترك الحكومة التركية أفراد الجالية الإيطالية يغادرون الإيالة بعد أن أصبحت مع إيطاليا ذاتها في حالة حرب؟ ألا يمكن اعتبار هذه الطائفة من الناس خطراً عسكرياً عليها وهم الذين يعرفون بحكم طول سكناهم من استراتيجية هذه البلاد اكثر مما يعرفه بعض الأتراك عنها ؟ أيعد هذا تغافلاً او استهتاراً واهمالاً واستهانة بالأمر ؟ لست أدري تعليلاً للأمر اللهم الا اذا كانت السلطات التركية في الولاية لا تدري من أمر العدوان المنتظر ولا من أمر هذا الإعلان شيئاً ، وهـــذا جائز بعد أن قامت البارجتان الباتروس Albatros وآيروني Aerone في الليلة الواقعة ما بين ٣٠ سبتمبر وأول

١ – Giulio Bonaci : Ili Ultimi giorni di Bengasi Turca p. 21 -26 ·

اكتوبر بقطع خط التلغراف البحري فيما بين طرابلس ومالطة [1] . وبعد أن قامت المدرعتان اللتان زارتا بنغازي ونقلتا الجالية الإيطالية منها بنسف محطة الراديو تلغراف في مدينـــة درنه قبل زيارتها لمدينة بنغازي [2] الأمر الذي عزل ليبيا باجمعها عن الآستانة ، اللهم الا فيما يتعلق بالخطوط الداخلية للتلغراف ، والتي كانت تصلها بالاستانة عن طريق مصر [3] . يضاف إلى هذا ذلك الموقف العدائي للفنيين الإيطاليين ولا سيما العاملين منهم في محطات الراديو تلغراف في جميع السفن والولايات العثمانية والذي اتخذوه استجابة لبرقية من ماركوني تضمنت نداء أو على الأصح أمراً وجهه إلى كل إيطالي وطلب فيه إليهم وضع أنفسهم وخبراتهم في خدمة الحكومة الايطالية ، فليس من المستبعد أن

---

١ – يذكر الزادوي في جهاد الأبطال (ص ٤٥) أن نشأت بك قائد الحامية لم يتأكد من قطع التلغراف البحري بين طرابلس والاستانة الا في آخر اليوم الأول من اكتوبر .

٢ – يقول الصحافي الايطالي الذي سبق مجيئه إلى بنغازي الحملة الايطالية بحوالي ٢٥ يوماً في كتابه Ili ultimi Jiorni di Bengasi Turca ص ٣٦ ، ان الاتراك والسلطات المحلية لم تكن تدري من امر إعلان الحرب على تركيا شيئاً حتى سفر المدرعتين الايطاليتين من بنغازي ، ويقول ان الأهالي ظنوا مجيئها إلى بنغازي نوعاً من التهديـــد الحربي أو الاحتجاج المسلح على حادثة الاعتداء على حقائب ومتاع القنصل الايطالي الذي كان قد وقع منذ أيام وهو اسلوب سبق للمدينة ان شاهدت مثله كثيراً في ماضيها القريب والبعيد .

٣ - Gaetano Cicerone المصدرالسابق ص ١٩٨ ، دائرة المعارف الايطالية تركاني Treccani مجلد ١٩ ص ١٠٦٠ . وقد قطع هذا الاتصال ايضا فيما بعد من قبل القوات الايطالية التي احتلت مدينة طبرق . وبهذا تم عزل ليبيا عن تركيا عزلا تاما لفترة من الزمن .

يكونوا قد أهملوا وعن قصد إبلاغ الخبر إلى سلطات الولاية ليتم تسفير الجالية الايطالية عنها في سلام .

أما بقية أفراد الجالية الإيطالية في المدن والقرى الأخرى من ليبيا فلم يغادروها حتى وقوع العدوان ، ومع ذلك فقد عجزت المصادر الإيطالية عن ذكر حادثة واحدة تعرض فيها إيطالي واحد فقط من هؤلاء الذين لم يغادروا البلاد منهم لأي اعتداء على شخصه أو عرضه أو ماله رغم ضغطها على موضوع تعرض سلامة أفراد الجالية الايطالية لخطر الاعتداء ، بل على العكس من ذلك فقد شهدت اثنتان من الأخوات الايطاليات عقب الاحتلال الايطالي لدرنه بأن العرب عملوا على اطلاق سراحهما من سجن الأتراك الذين اعتبروهما من الأعداء . وأنهم آووهما وحموهما . وحتى في بنغازي نجد متصرفها التركي ، وهو يعرف من الليبيين ما يعرف، يسرف في طمأنة الرهبان المتخلفين من الجالية بها على أرواحهم ومقتنيات الكنيسة من أي اعتداء بل ويلجأ إلى الاحتماء لزوجه وأبنائه بهم فيلجئها إليهم بالذات قبيل الاعتداء .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على نبل هذا الشعب العربي الأصيل الذي أبت وتأبى عليه شهامته ورجولته أن يعتدي على الضعفاء حتى ولو كان هو ذاتـه ضحية عدوان الدولة التي ينتمي إليهـا أولئك الافراد . هذا في ليبيا ، أما في تركيا نفسها فقد أصدرت الحكومة العثمانية أمراً

يقضي بطرد جميع أفراد الجالية الايطالية بهـــا من البلاد وقراراً برفع الضريبة على البضائع الايطالية إلى ١٠٠ ٪ من سعرها الاصلي ، ولكن الامر الاول لم ينفذ لتدخل السفارة الالمانية في الموضوع،أما القرار الثاني فبالرغم من تنفيذه الا أن المصانع والشركات الايطالية لم تتاثر به لسبب بسيط هو أن بضائعها سوف لن تصل إلى تركيا لسبب بسيط جداً هو أن القوانين الايطالية تعتبر التعامل مع العدو خيانة وطنية أياً كان نوع هذا التعامل .

موقف ماركوني ومؤسسته

كانت المؤسسة التي يديرها غوليلمو ماركوني Guglielmo Marconi تزاول العمل على أغلب السفن التركية المزودة بأجهزة الإرسال والاستقبال البرقية . ومن إن أعلنت الحرب على تركيـــا حتى أصدر ماركوني أمراً برقياً إلى جميع رجال مؤسسته العاملـــين في إيطاليا وخارجها وعلى السفن العثمانية بوجوب التخلي عن العمل فوراً ، وأمراً آخر إلى جميع مراكز ومحطات المؤسسة طلب فيه إلى رجالها وضع أنفسهم وخدماتهم تحت تصرف السلطات الايطالية وتنفيذ رغبات رجالها . وأبرق إلى وزير المواصلات تيوبولدو كاليسانو Teobaldo Calissano يعلمه بأنه نظراً للظروف السياسية القائمة فإن رجال مؤسسته في كاتانو بيارما ، وفي بقية انحاء البلاد يضعون

أنفسهم وخبراتهم تحت تصرف الحكومة الايطالية [1] . وطبيعي أن يرد الوزير المذكور على ماركوني بالشكر والثناء لموقفه المشرف من بلاده .

ولا يعنينا بالطبع موقف ماركوني من بلاده بقدر ما يهمنا الوقوف عند الدرس التاريخي الخطير الذي يتضمنه هذا الحادث بالذات والذي رأيناه يتكرر مرة أخرى حينما قررت مصر تأميم شركة قناة السويس . فقد برهن موقف ماركوني ورجاله من تركيا ، وموقف خبراء ومرشدي السفن في القناة من مصر ، عملياً على خطإ فكرة الاستمرار في الاعتماد على غير أبناء الوطن نفسه في القيام بالحساس من الأمور الاستراتيجية والفنية ، واذا كانت نتائج موقف مرشدي قناة السويس معروفة للجميع ، فان نتائج موقف رجال مؤسسة مركوني كانت بالنسبة لوحدات الأسطول العثماني كارثة بلغت من الخطورة حد تعطيل تحركاته ،فقد افقدته الكثير من وحداته واخرجته من الميدان الحربي منذ أول جولة .

العمليات البحرية الأولى :

ولما كانت معظم أجهزة التلغراف في وحدات الاسطول العثماني

---

١ – Gaetano Cicerone نفس المصدر السابق ص ١٩١-١٩٢.

بايدي الفنيين الإيطاليين ، فقد بات من غير الصعب على قيادة الأسطول الايطالي معرفة جميع تحركات وحداته بدقة متناهية ، لذلك نراها قد تمكنت وبسهولة من الوصول إلى معرفةمكان كل قطعة من قطع الأسطول العثماني وإلى مراقبة تحركاتها ومحاصرتها حيث وجدت .

وحينما أعلنت الحرب بين البلدين تمكن الأسطول الإيطالي من إنزال ضربات سريعة متلاحقة كان الفضل فيها ولا شك لا يعود إلى شجاعة ومبادرة رجال الأسطول ولا إلى تفوق قطع الأسطول الايطالي بقدر ما يعود إلى (خيانة ؟) رجال اللاسلكي العاملين عليه .

ففي ٣٠ سبتمبر (أي قبل مضي ٣٠ ساعة فقط على توقيع وثيقة اعلان الحرب) أصدرت القيادة البحرية البلاغ التالي :

« من أخبار وصلت إلى وزارة البحرية في الأيام الماضية [١] يتضح أن طرادات تركيا تتجمع في ميناء بريفيسا Prevesa [٢] بقصد التجول في مياه بحر الأدرياتيك ربما لاصطياد سفن النقل الايطالية ، ولبث الذعر بين سكان مدننا البحرية المفتوحة أو لمضايقة تحركات أسطولنا البحري

---

١ – هل معنى هذا ان رجال للاسلكي كانوا قد بدأوا في تنفيذ خطة كشف تحركات ومواقع الأسطول العثماني حتى قبل إعلان الحرب في ٢٩ سبتمبر ؟ ليس الأمر بمستغرب على كل حال .

٢ – مدينة محصنة على خليج ارتا Arta من بحر يونيو Ionio بالساحل الشمالي الغربي من بلاد اليونان في مقابلة كاتانزارو Catanzaro تقريبا .

كذلك [1] .

« وقد اتخذت الاحتياطات الكفيلة باحباط هذه الخطط ، وكنتيجة لهذه التدابير ، أبرق إلينا دوقاديلي ابروتسي Duca Degli Abruzzi هـذا المساء بالبرقيـــة التالية : حينما وصلت هذا الصباح تجاه بريفيسا ، وأخذت أجوب مياهها أبرق إلي قواد الوحدات البحرية عند الساعة ١٥ بأن بارجتين تركيتين تحاولان الدخول تباعاً إلى مرفأ تلك المدينة ، وقد طاردت بعض وحدات الأسطول أولاهما بعد أن حاولت الفرار بالاتجاه إلى الغرب ، واستطاع الطراد ألبينو Albino في معركة دفعت بالبارجة التركية إلى الساحل حيث اصطدمت بالصخور ، وقد شبت فيها النيران ودمرت ؛ أما البارجة الثانية فقد تمكنت من الدخول إلى الميناء قبل أن تلحق بها وحداتنا أي أذى » [1]

وفي العمليات البحرية التي قام بها الأسطول الايطالي والانتصارات التي حققها في مياه الحوض الشرقي من البحر المتوسط خلال المدة ما بين ٢٨ سبتمبر و٥ اكتوبر ما يقدم الدليل الدامغ على مدى الخسارة التي ألحقها عمال مؤسسة ماركوني اللاسلكية بالأسطول العثماني الذي يعملون عليه .

---

١ – يتضمن هذا الجزء من البلاغ الحربي شعور القيادة البحرية الايطالية بضرورة تغطية ما يكشف عنه قصر المدة التي مرت على اعلان الحرب . وإلا ، فما الداعي لأن يقدم البـــلاغ تبريرات لعمليات حربية ضد قوات دولة اصبحت معها بالفعل في حالة حرب ؟

١ – Gaetano Cicerone : نفس المصدر السابق ص ١٩٣ .

فقد أغرقت خلال هذه الفترة في معارك منفردة الطرادات والبوارج والسفن التركية : طوقات Tocat ،الحميدية ، الباغوت Albagot ، طرابلس وبارجة وطراد آخرين لم يذكر مصدرنا إسميهما ؛ كما استولى الايطاليون على الباخرة التركية « صباح » وعلى باخرة أخرى جميع بحارتها من الاغريق كان على ظهرها فيما يقول المصدر خمسة ضباط و ١٦٢ جندياً من الاتراك ، وشحنة من الاسلحة والذخيرة . كما استولوا على اليخت تتبيس Tetbis الذي ضم فيمابعد إلى الاسطول الايطالي كاحدى وحداته، وأطلق عليه اسم القبطان فيري Verri [١] .

وقد أثارت هذه العمليات البحرية الحربية من جانب إيطاليا في بحار الأدرياتيك وإيجه (شواطىء البلقان الغربية) قلق النمسا ودفعتها إلى الاحتجاج على هذه العمليات في منطقة تحرص النمسا على عدم إقحامها في خضم الصراع . فبادرت إيطاليا بتأكيد التزاماتها بالمحافظة على الوضع القائم Statuquo في بلاد البلقان [٢] . وكانت عمليات قصف شاطىء مادوا San Giovanni di Medua التي قام بها الطراد ارتيليري Artigliere في الخامس من اكتوبر هي آخر عملية حربية في تلك المياه ، إذ أبلغ جميع قادته واميرالاته من روما رأساً بوجوب إيقاف العمليات الحربية البحرية قرب شواطىء بلاد البلقان تجنباً لما قد أثارته من مخاوف بعض الدول التي تحرص إيطاليا على أن لا تثيرها ضدها [٣] .

---

١ - ٢ Gaetano Cicerone : نفس المصدر السابق ص ١٩٤/ ١٩٥ .
٣ - » » » » » » ٢٠٠ .

احتماء الاسطول التركي بالدردنيل

كانت العمليات البحرية التي أشرنا إليها قد حدثت في حالات كان ينفرد فيها الأسطول كمجموعة (عدد من الوحدات) بأحدى قطع الأسطول التركي في عرض البحر ، أما الاسطول العثماني ذاته ، فقد كان مرابطاً في مياه بيروت من لبنان[1] . فلما تسلم الصدر الاعظم ذلك الانذار الايطالي ، بادرت وزارة البحرية التركية من جانبها بأمر أسطولها المرابط ببيروت بمغادرتها والالتجاء إلى مياه الدردنيل . فغادر الأسطول العثماني في مجموعه مياه بيروت في ٢٨ سبتمبر موهماً المراقبين باتجاهه غرباً إلى أنه إنما يقصد شواطىء برقة ، ولكنه في عرض البحر غير اتجاهه فجأة الى الدردنيل . وبهذا استطاع أن يخدع الأسطول الإيطالي الذي كان يترقبه ويرصد تحركاته ، وبهذا تجنب الدخول في معركة بحرية مع الاعداء .

ولم يغادر الأسطول العثماني الحربي ملجأه بعد ذلك مما ترك لأسطول إيطاليا حرية مخر عباب البحر المتوسط ومهاجمة ليبيا وهو مطمئن على خطوط مواصلاته من أي هجوم مفاجىء .

---

١ ـ قالت دائرة المعارف الايطالية Treccani (المجلد ١٩ ص ١٠٦٠) ان الاسطول العثماني الموزع على طول شواطىء الامبراطورية من البانيا حتى البحر الاحمر كان حينذاك يشتمل على ٣ مدرعات ، ٤ بوارج ، ٥ قاذفات طوربيد ، ١٦ طراداً ، ٩ سفن حربية مسلحة ، ٢٠ سفينة نقل وذلك الى جانب عدد آخر من السفن قديمة العهد وفي حالة لا تسمح بمخر عباب البحر .

ولا أريد أن أناقش خطأ التصرف التركي في هذا فهو أوضح من أن يناقش فيه أحد ، ولا أن أبحث له عن مبرر فمهما كانت الأعذار التي يمكن تقديمها فانها لا تخفف من فداحة الخطأ التكتيكي السياسي ــ الحربي الذي ارتكبته البحرية التركية بتصرفها هذا . ولكن ما أريد أن أسجله هنا هو أن نتيجة هذا الخطإ في التكتيك الحربي كانت عدم فقدان إيطاليا لأي شيء من وحداتها البحرية الحربية أو من سفن النقل التي أقلت جنود الحملة إلى ليبيا أثناء عمليات الغزو الأولى ، وخلال عمليات نقل جنود الحملة إليها بعد ذلك مما زاد في العبء الملقى على عاتق القوات العثمانية في الدفاع، فقد أصبح عليهم وعلى الوطنيين معاً أن يصدوا غزواً بحرياً لقوة آمنة على ظهرها من الاعتداء على مؤخرتها هاجمتهم بجميع إمكانيتها من الرجال والسلاح .

الفصل الثاني

قوات الغزو وإمكانيات الدفاع

نظرة إيطاليا إلى هذه الحرب

لم تكن لإيطاليا كدولة من وجهـــة النظر العسكرية في الحروب عموماً ، وفي الحروب الاستعمارية على وجه الخصوص ، أية تجربة سابقة عدا حروب الوحدة التي كانت ذات طابع خاص ، وقد مضى عليها حتى ذلك الحين ٥٠ سنة كاملة؛ وغير حربها في مستعمرة أريتريا التي منيت فيها بهزيمة « عدوة » ، التي تركت في نفوس الزعماء والقادة الايطاليين عقدة نفسية ، وشعوراً بمركب نقص بدا أثره واضحاً في المبالغة في الاعداد للحملة الايطالية لغزو ليبيا . فقد أرادت إيطاليا أن تعيد إلى ذاتيتها كدولة كبرى أوربية وإلى جنودها كجيش نظامي الثقة بالنفس ، والبرهنة على التفوق الحربي من طريق تحقيق انتصارات سريعة متلاحقة في الميدان الليبي كانت الوزارة الايطالية تؤمل من ورائها كسباً سياسياً يمكنها من سحق الحركة الاشتراكية المناوئة لمبدإ التوسع الاستعماري الذي تعتنقه

الوزارة الإيطالية وتعمل من أجله . ويؤمل الجيش من ورائها دفع تهمة القصور والعجز الحربي التي لحقت به من جراء هزيمة «عدوة».

لهذا أعطت الوزارة الايطالية هذه الحرب العدوانية قيمة لم تكن تستحقها في البداية فأوقعها هـذا التقدير في عدد من الأخطاء السياسية والعسكرية التي كانت وبالاً عليها ووصمة عار في تاريخها العسكري .

لقد سخرت إيطاليا لهذه الحرب جميع إمكانياتها المادية والمعنوية ، واستعدت لها استعداد من يقدم على خوض غمار حرب شاملة مع دولة كبرى في أكثر من ميدان؛ ونسي وزراؤها وبرلمانها وساستها وعسكريوها أنهم إنما يفعلون ذلك من أجـل الاستيلاء على ولاية عثمانية مجردة عن الأسلحة وسائر العتاد الحربي فداهموها بكامل أسطولهم وجميع جنودهم بعد أن أعلنوا التعبئة العامة وجمعوا لها ما أمكنهم جمعه من الرجـال والعتاد والسلاح. واذا كانو قد فشلوا بالرغم من ذلك فأمام قوات شعبية لم يكونوا باعترافهم يحسبون لها حساباً في الإعداد والاستعداد الذي سبق الغزو وصاحبه .

قوات الغزو الايطالية

وهكذا كان اعداد الحملة الايطالية لغزو ليبيا عظيماً لم تقم بمثله فرنسا يوم داهمت الجزائر ولا حينما هاجمت تونس ، ولا قامت بـه بريطانيا حينما قررت بسط نفوذها على مصر : فقـد كانت الحملة الفرنسية على

الجزائر تتكون من ٣٦٠٠٠٠ جندي ، وكانت حملتها على تونس تتكون من ٣٠٠٠٠٠ رجل بينما بلغت قوات الحملة الايطالية أكثر من مائة ألف جندي . وهو رقم مرتفع جداً إذا قورن بعدد سكان هذه الأقاليم الثلاثة وإمكانياتها الدفاعية ، ومدى قوات كل منهـا سواء أكانت نظامية أم شعبية .

ولم تأت الحملة الايطالية دفعة واحدة ، بل على ثلاث دفعات كانت الأولى منها هي التي أعدت في الاشهر الثلاثة السابقة للقيام بالغزو ، وتتكون من جيش يضم فرقتين (Divisioni) من جند المشاة يكون كل فرقة منهما لواءان (Brigate) قوام كل لواء منهما آلايان (Regimenti) مشاة ، وسرية مدافع رشاشة ، وكوكبتا فرسان . ثم من آلاي مدفعية ميدان بأربع بطاريات [1] وجماعة شغيلة Genio كما يضم الجيش آلايين

---

١ – يتكون آلاي المدفعية للفرقة الأولى من ٥٨ مدفعاً (٣٦ منها ميدان ، و٢٢ جبلي). ويتكون آلاي المدفعية للفرقة الثانية من ٣٦ مدفعاً (٢٤ منها ميدان ، و ١٢ جبلي) أي انهما معاً يكونان آلاي مدفعية ميدان وآلاي مدفعية جبلية يكونهما :

١) آلاي مدفعية الميدان : بطاريتان من مدافع طراز 75 A . . . ٦٠

ضباط	٢٨
جنود مدفعية	٦٧٥
حيوانات جر	٥٥٣
عربات كبيرة	٥٦
عربات صغيرة	٢٦

٢) آلاي المدفعية الجبلية : بطاريتان من مدافع طراز 70 جبلي . . . ٣٤ =

آخرين من عساكر البرساليري Bersaglieri وقد اشتهر جنودها محلياً بـ « عسكر بو ريشة » (وذلك لأن قبعاتهم كانت مميزة بباقة من ريش الطيور) وآلاي مدفعية جبلية ، وأرطة Battagione من سلاح الاشارة (التلغراف) مع أربع محطات راديو ميدان . وقد بلغ مجموع هذه الحملة الأولى :

ضباط	١،١٠٥
جنود	٣٣،٣٠٣
خيل	١،٤٩٤
حيوانات أخرى	٤،٧٠٤
عربات نقل كبيرة	٢٦٦
عربات نقل صغيرة	٧٩٨
مدافع ميدان	٤٨
مدافع جبلية	٢٤ [1] .

=

ضباط	٣٠
جنود مدفعية	١١٧٨
حيوانات جر	٤٢٣
عربات كبيرة	٢٤
عربات صغيرة	٥

١ — لم يبحر من المدفعية في مبدأ الأمر غير الذي ذكر هنا وذلك اعتماداً على مدفعية رجال الاسطول التي انزلت إلى البر ولكن سرعان ما نقلت إلى ليبيا حينما تبين للمسئولين حاجتهم إليها للقتال .

بهذه القوة وما تحتاجه من عتاد داهمت الحكومـــة الايطالية ليبيا بادىء الأمر ، ولكنها لم تجد فيها الكفاية حينما اكتشفت خطأ الاحتالين اللذين أقامت عليهما خطة غزوها العامة[1] فعززتها بدفعة ثانية اكثر عدداً (ما بين اكتوبر وأول ديسمبر سنة ١٩١١)تتكون من فرقتين عسكريتين تضم كل منهما سبعة ألوية وآلاي مشاة، وست أرط من جنود الألب، وآلاي برساليري ، وثماني كوكبات فرسان ، و ١٧ بطارية ميـــدان ، و ٨ بطاريات جبلية ، و ٥ جماعات شغيلة . وبالإضافة إلى ذلك ضمنت الحملة الثانية ٤ جماعات من رجال الألغام ، وجماعة واحـــدة من سلاح الاشارة (التلغرافيين) وفرقة طيران ومحطتي راديو ميدان وبقية مستلزمات الجيش واحتياجاته . ويبلغ مجموع هذه الدفعة الثانية :

جنود وضباط	٥٥،٠٠٠
خيل وحيوانات اخرى	٨،٣٠٠
عربات نقل	١،٥٠٠
مدافع ميدان	٨٤
مدافع جبلية	٤٢
قاذفات لهب للحصار	٢٨

(١) انظر حول هذين الاحتالين والخطة المبنية عليهما الصفحات التالية من هذا الكتاب .

وحتى هذه الدفعة الثانية التي رفعت قوات الحملة إلى ٨٩،٠٠٠ جندي، لم تكن في نظر إيطاليا هي الأخرى بالكافية لذلك عززت الحملة بدفعة ثالثة كونت من أربع أرط من جنود الألب وسبع أرط من عساكر الاحباش وكوكبة مهاريست (جمالة) من الاحباش أيضاً وعدد آخر من القوة الجوية، وتعزيزات من رجال الطيران، وبهذه الدفعة الثالثة ارتفع عدد جنود الحملة العسكرية التي وجهتها إيطاليا إلى أكثر من مائة ألف جندي .

كل هذه القوات عدا بحارة الأسطول الايطالي المكون من أكثر من ٣٥٠ قطعة حربية ومن الأسطول التجاري المدني الذي استغل هو الآخر في نقل قوات الغزو ونقل عتادها الحربي . وقد يكفي لإعطاء فكرة عامة عن عدد بحارة الاسطول الايطالي [١] أن نشير إلى أن كلا من مدينة طرابلس وبلدة طبرق قد احتلت من قبل هؤلاء البحارة ، وقبل وصول قوات الحملة البرية (الجيش) إلى ليبيا، والى أن البحارة شاركوا أيضاً في الغزو على درنه وبنغازي والخمس، وكان لهـم دور ملحوظ في تمكين الجيش من احتلالها [٢] .

---

١ – لم استطع بما تحت يدي من مصادر الحصول على رقم ولو تقريبي لعدد هؤلاء البحارة المكونين لقوة الأسطول البشرية .

٢ – اعتمدت في كتابة هذه الفقرة بكاملها على عدد من المصادر العربية والإيطالية اهمها =

قوات الدفاع العثمانية النظامية

من المذكرة التاريخية التي قدمها النواب الليبيون إلى مجلس المبعوثان العثماني عقب الاعتـــداء مباشرة [1] والتي عددوا فيها مظاهر الفساد والإهمال في الولاية يتضح لنا أن القوات العثمانية التي كانت معسكرة في ليبيا سنة ١٩١٠ تتكون من الآلايين السابع والثلاثين والثامن والثلاثين فقط ، وأن الحكومة العثمانية قد سحبت من هذه القوة أربع أرط من الأرط الثمان المكونة للآلايين لاستخدامهما في اخماد الثورة التي قامت ضدها في اليمن .

أما ساطع الحصري في كتابه : « البلاد العربية والدولة العثمانية » (ص ٢٥٦) فيقول إن لوائي المشاة بطرابلس هما اللواء الثامن والسبعون والتاسع والثمانون ، وأنهما يضمان الآيات المشاة الأربع التالية : ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ؛ وأن بطرابلس أيضاً ألايي الخيالة ٣٧ و ٣٨ الى جانب طابور القناصة ١٥ ، ولكنه يذكر أن هذا التنظيم كان في أواخر القرن التاسع عشر ، ثم يعود فيذكر في آخر الصفحة ذاتها ملحوظة يفهم منها

= جملة ما يلي :

A• Gaibi :- Manuale di Storia Politico - Militare delle Colonie italiane .
B) Gen. Carlo Montu : - Storia dell' Artiglieria Italiana Part III Vol.VI.

١ – راجع هذه الوثيقة بنصيها في كتابي «بداية المأساة».

بأن وضع هذه القوة لم يتغير حينما بدأ الغز الايطالي ، ذلك أنه يقول بأن التنظيم العسكري للدولة العثمانية لم يتغير الا عقب حرب البلقان وهي الحرب التي لم تنشأ إلا كنتيجة للعدوان الايطالي على ليبيا وما سببه زيادة في ضعف الدولة العثمانية ذاتها .

وأمـــا جايتاني شيشرون صاحب كتاب « المستعمرة الايطالية الثالثة » فيقول في (ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥) « إن القوات العثمانية التي كانت مرابطة في الولاية كانت تتكون من فرقة عسكرية محدودة العدد جـداً ؛ فقد كان في إيالة طرابلس ألا يات ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ من المشاة الأتراك . ومن فرقة قناصة واحدة وأربع كوكبات فرسان وعشر بطاريات أربـع منها جبلية وخمس للميدان وواحدة للحصون . ولكن هذه القوات في مجموعها لا تتعدى الثلاثة آلاف جندي نظامي ولكنها بجند الرديف أو الاحتياطي قد تصل إلى ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ جندي » .

« أما بقية الحامية العثمانية فتوجد منعزلة في برقـة حيث لوحظ وجود الألاي ١٢٤ من المشاة الأتراك وكوكبة واحـدة من الفرسان ، وخمس بطاريات موزعة بين الثلاثة أنواع (جبلي ـ ميدان ـ حصون)، وأن مجموع القوة في هذه المتصرفية لا يتعدى ٢٠٠٠ حندي » . ولا يتعرض المصدر لتوزيع النوات في طرابلس ، أما عن حامية برقـة : « وأقوى المناطق تحصيناً في برقة هي بنغازي إذ يوجـــد فيها أرطتان مشاة ، وكوكبة فرسان ، وثلاث بطاريات ، أما في درنه فيوجد من

الحامية أرطة واحدة وجماعة في شحات ، وحوالي مائة جندي في الواحات (جالو ـ أوجلة) » .

وتقول دائرة المعارف الايطالية Treccani (المجلد ١٩ ص ١٠٦٠) عن القوات التركية إنها تتكون من أربعة ألآيات مشاة وأرطة واحدة من القناصة وألاي من المدفعية ، وثلاث جماعات من جنـد المدفعية (الطوبجية) وست جماعات شغيلة Genio وألاي جندرمة وأن هذه القوة بالنظر لإدارتها السيئة وغير الحازمة كانت لا تتعدى في مجموعها ٥٠٠٠ جندي في ولاية طرابلس و٢٠٠٠ جندي في برقة .ويسكت المصدر عن ذكر الأرقام المميزة للآلايات واللواءات المكونة لها .

ويقول مصدر إيطالي آخر [١] إن الفرقـة العثمانية التي كانت مرابطة في ليبيا هي الفرقـة الثانية والاربعين من الجيش العثماني .

وفي « قضية ليبيا » لمحمود الشنيطي (ص ٤٩) : « وكان لتركيا حوالي ٥٠٠٠ رجل في طرابلس و ٢٠٠٠ في برقة ولكن الحاميات كانت ضعيفة ، ناقصة العتاد ' وفي رواية إيطالية أن الجنود الأتراك في مايو سنة ١٩١١ كانوا ٣٠١٠ في طرابلس ' ١٢٠٠ في برقة » .

وكانت بقية المصادر الإيطالية التي اطلعنا عليها تجمع على أن حامية

---

١ — Gener. Carlo Montu : Storia dell' Arteglioria italiana Par. III vol V I Pag. 420 .

طرابلس ـ برقـة من الأتراك كانت حين وقوع العدوان الايطالي لا تتعدى سبعة آلاف جندي: خمسة آلاف منها في طرابلس وألفان في برقــة .

ومـع التجاوز عن لاختلافات بين المصادر حول أرقام الألايات المميزة ' وبعد التوفيق بين ما يرويه ساطع الحصري وبين ما ذكر بالمذكرة الليبية من أن الحكومة التركية كانت قـد اضطرت إلى نقل بعض الأرط إلى اليمن ' نكاد نلمس توافقاً فيما يرويه كلاهما ، وبقية المصادر حول عدد الجند المرابط ومدى ضآلة القوة العثمانية التي حملها سوء الطالع مسئولية الدفاع عن هذه الايالة وصد العدو بقواته الجرارة عن احتلالها .

قوات الرديف المحلية

وكانت تركيا تعول في حروبها على قوات أخرى غـــير القوات النظاميـــة عرفت باسم « عسكري الرديف » وتتكون من مجندين محليين سبق أو لم يسبق لهم أن تلقوا تدريبات عسكرية سريعة على استخدام الأسلحة والتقيد بالنظام في الحركة . ولكن هذا النظام لم يعمل به في ليبيا مطلقاً إبان العهد العثماني الثاني .

وعقب حدوث الانقلاب العثماني فرضت الخدمة العسكرية جبرياً على المسلمين وأعفي منها رعايـا الامبراطورية من غير المسلمين مقابـل

ضريبة « البدل العسكري » ولكن هذا النظام لم يعمل به هو الآخر في ليبيا التي أعفيت منه كما أعفيت إيالات عثمانية أخرى غيرها، ويقول حوله الميجر أنتوني جوزيف كاكيا في كتابه : « ليبيا في العهد العثماني الثاني » (ص ٩١ من ترجمة حسن العسلي) أن الخدمة العسكرية في ليبيا جعلت إجبارية ، ولكن ذلك « أدى إلى مناهضة أهل البـــلاد لتلك القوانين ، وعلى الأخص في متصرفية بنغـــازي حيث قام عدد كبير من السنوسية بمشاغبات ضد الدولة إلى أن أجري اتفاق بذلك الخصوص في سيدي رافع عام ١٩١٠ حضره جميع رؤساء قبائل الزوية، واعيان قبائـــل الدرسا والبراعشة والحاسا والصرفة والعبيد »[١] .

أما المذكرة الليبية فتروي حول الخدمة أن الأهالي ما فتئوا يطالبون بتطبيق نظام التجنيد على أهالي الولاية ، وأن الدولة هي التي تباطأت في تطبيق هذا القانون لعجزها المالي (وربما تنفيذاً لسياسة التربص التي أقرت في مؤتمر سالونيك) ثم تضيف المذكرة إلى هذا أن الدولة عادت فقررت الشروع في تطبيق قانون التجنيد على الليبيين ايضاً حينما اعتمدت

---

١ — لم نعرف من أمر هذا الموقف أو شيء في غير هـــذا المصدر سوى عبارة وردت في كتاب «سنوسيو برقة» لإيفانس بريتشارد حول موقف السنوسيين العدائي من جماعة الاتحاد والترقي. وبالنظر لأن المذكرة الليبية تنقضه كلية حينما تنسب إهمال التجنيد الى الحكومة التركية ذاتها لا الى الشعب الليبي . ولما كان الإعفاء من الخدمة العسكرية يشمل ولايات غير هـــذه كذلك فاننا نحتمل أن الرواية كانت مختلقة في الاصل لتدعيم فكرة مناوأة السنوسية للسلطان العثماني وهو ما لم يحدث كما اثبتنا في كتاب آخر لنا .

مبلغاً معيناً في ميزانية سنة ١٩١٠ لهذا الغرض ، ولكنها هي التي تلكأت في التنفيذ حتى أنها لم ترسل بعثة التدريب إلا قبل أربعة أشهر فقط من تاريخ تقديم المذكرة .

وقالت المذكرة أيضاً عن البعثة أنها تتكون من :

قائمقام
كاتب آلاي
أربعة ضباط برتبة يوزباشي
ثلاثة عشر ضابطاً برتبة ملازم أول
واحد وعشرين شاويشاً (شاوش)

وتقول المذكرة أن ثلاثة آلاف واربعمائة فقط هم الذين سجلوا من مجموع من في سن الخدمة العسكرية . وفي مصدر إيطالي إشارة إلى أن شاويشين آخرين قد وصلا على ظهر الباخرة « درنة » لهذا الغرض مع ثمانية عشر جندياً تركياً وسبعة من الطوبجية (رجال المدفعية) .

ومما سبق يتضح أن القوات النظامية لا يمكن أن تكون ذات أثر في الدفاع عن الولاية نظراً لأنها كانت موزعة على مختلف المناطق الإدارية لحماية الأمن الداخلي فيها ، وقوات الرديف أو الإحتياطي (أي المجندين المحليين الجدد) لم تتلق بعد التدريب الكافي بالنظر لقصر مدة التجنيد (اربعة أشهر قبل وقوع العدوان ، يدخل فيها فترة التخطيط والتنظيم والاكتتاب والاختيار إلى جانب التدريب) .

وهؤلاء الذين تقول المذكرة عنهم بأنهم ٣٤٠٠ جندي هم الذين يقول عنهم مصدر إيطالي بأنهم ما بين الألف والألفين فقط . ونحن نميل إلى تصديق هذا الأخير لقصر المدة ، ولقلة عدد المدربين من الضباط وصف الضباط ، ولا يعني هذا أننا نشك في صحة بيانات المذكرة ذاتها ؛ فمن الجائز أن واضعيها قد اعتمدوا بيانات التسجيل لا التدريب أو بعبارة أخرى أن البعثة لم تتمكن من تدريب جميع المسجلين لديها في دفعة واحدة فأرجأت إلى حين ولكن العدو داهمها قبل الفراغ من الدفعة الأولى إلى التي تليها .

أسلحة هذه القوات

وقد تعرضت المذكرة الليبية إلى حاجة كل من القوتين النظامية والرديف المحلية إلى السلاح فقالت عن الموضوع أنه كانت توجد بمخازن الولاية كمية من الأسلحة تتعدى الأربعين ألف بندقية من طراز مارتين وشنايدر ، ولكن حكومة الصدر الأعظم (حقي باشا) استرجعتها بحجة الرغبة في استبدالها بأخرى أحدث طرازاً ،وهكذا خلت المخازن العسكرية من الأسلحة والذخيرة (الاحتياطي) ، أما عن أسلحة الحامية العثمانية فيقول عنها قايتانو شيشروني (من المصدر السابق ص ٢٠٥) ما يلي : « أما أسلحة المشاة فقد كانت عبارة عن بنادق ماوزر Mauser من طراز قديم قطر ٩،٥ غير اوماتيكية (تعبأ في كل مرة) ولذلك فهي من طراز رديء ، أما أسلحة جندرمة (بوليس) طرابلس فقد كانت أقدم نوعاً من

تلك « الهنري مارتين L'Henry Martini » وإما سلاح المدفعية فقد كان أحسن حظاً إذ أن مدافعه كانت من نوع Krupp السريعـة الطلقات ، ومن طراز حديث بعض الشيء إلى جانب مدافـع أخرى ذات الطلقات العاديـة .

ويقول الجنرال كارلو منتوفي « تاريخ المدفعية الايطالية » (القسم الثالث ، الجزء السادس ص ٤٢٤) أن الفرقـة الثانية والأربعين العثمانية مزودة بمدافع سريعة الطلقات Krupp عيار A - 75 وبمدافع جبلية سريعة الطلقات أيضاً من نفس الطراز موديل ١٩٠٣ عيار 75-A أيضاً تبلغ في مجموعها ٤٨ مدفعاً منها ٣٦ في طرابلس و ١٢ في برقة ، وأنها مزودة بكميات وافرة من الذخيرة

ويقول مصدر آخر (متأخر زمناً عن الفترة المؤرخ لها) أن القوات العثمانية تلقت على ظهر الباخرة « درنة » التي وصلت إلى طرابلس في ٢٦ سبتمبر ١٩١١ كمية من البنادق بلغت ١٥،٠٠٠ بندقية وحوالي ٢،٠٠٠،٠٠٠ طلقة خرطوش لها [١] . وهي أرقام عالية جداً نشك في دقتها كثيراً ، كما أن مصدراً إيطالياً (أقرب زمناً من الحوادث المؤرخ لها) حـدد شحنة هذه السفينة بدقة فيما يلي : ٢٠ جندياً بينهم اثنان برتبة شاويش ، سبعة جنود من الطوبجية ، مائتا قنطار من القمح ، مائتا قنطار من الشعير ،

---

١ — الطاهر الزاوي : جهاد الأبطال ص ٤٥ .

أربعون صندوقاً من البارود (الذخيرة) ولا شيء من الأسلحة [١] .

ومهما يكن من أمر هذه الشحنة وعلى فرض وصولها ، ومع التسليم بأن عملية تفريغها بالميناء (فيما يقول المصدر الأول) قد استغرقت أيام ٢٧ ـ ٢٨ ـ ٢٩ سبتمبر ، فإنه ما كان بالإمكان الاستفادة منها في التدريب ولا في تغيير ما بأيدي الجند رجال الحامية من سلاح بالنظر لتلاحق الحوادث وتتابعها في سرعة بعد ذلك التاريخ من جهة ، ولتبعثر هذه الحامية بين شتى المراكز الادارية ، ولبطء المواصلات مع سعة الإقليم من جهة أخرى .

التحصينات في طرابلس وبقية مدن الساحل الليبي

وكانت مدينة طرابلس هي أهم موضع في الساحل الليبي يليها من حيث تجمع السكان مدينة بنغازي ، واذا كانت الأخيرة بسبب وضع اجتماعي سياسي عريق قد بقيت دون تحصين ولم تعن الحكومات التركية بتحصين البلدة فظلت دونما سور ، مجردة من القلاع والحصون الدفاعية فإن مدينة طرابلس على العكس كانت بحكم ماضيها العريق في الصراع البحري بين الاسلام والمسيحية تتمتع بوسائل دفاعية ممتازة، فهي مسورة بسور مرتفع سميك ، وعدد من القلاع والأبراج ، تحيط بها وتحميها من هجوم الاعداء عليها سواء من البحر أو البر على السواء . من هذه القلاع

---

١ - Gaetano Cicerone : - La terza colonia italiana, — 1913.

ما أشارت إليه المصادر الإيطالية ، وهي ثمانية :

١ ـ القلعة الحميدية ، ٢ ـ برج الميناء أو برج الرصيف ، ٣ ـ برج الفنار ، ٤ ـ برج السور (لركن الشمالي الغربي) ، ٥ ـ القلعة السلطانية. وجميعها للدفاع عنها بحراً ؛ ثم ٦ ـ برج ج (التسمية ايطالية)، ٧ ـ برج د (التسمية ايطالية أيضاً) ، ٨ ـ برج المصري أو سيدي المصري . وهي للدفاع عنها براً فقط لوقوعها جنوب غرب وجنوب شرق المدينة وعلى مسافة من الشاطىء .

ويذكر الزاوي في حاشية له على كتابه جهاد الأبطال (ص٤٩) إلى جانب القلعة الحميدية والقلعة السلطانية برج الشعاب ، وبرج التراب ، وقلعة قرقارش ولكنه وهو الذي يعرفها فيما يقول بخل على قرائه فلم يحدد لنا أماكنها الأمر الذي قصر بنا دون التعرف عليها لمقارنتها بالتسمية الإيطالية لذات الأبراج التي سميت أو رمز لها باحرف من المعجم .

ويذكر مصدرنا الإيطالي وهو عسكري الطابع عن قوة هذه القلاع والأبراج فيقول أن في القلعة الحميدية ستة مدافع، وفي برج الرصيف عشرين مدفعاً ، وفي برج الفنار أربعة مدافع ، وفي برج السور ثلاثة مدافع وفي القلعة السلطانية سبعة مدافع . ويضيف المصدر الى ذلك في صدد حديثه عن تحصينات المدينة حين الغزو فيقول أنه كانت راسية في الميناء البارجة التركية « المنصورة » مسلحة بمدفع عيار ١٨ وبأربعة مدافع عيار ١٢ وبمدفع رشاش واحد . أما عن الموانع الطبيعية فيقول : أن الشاطىء في

هذه المنطقة قليل العمق ، ولا يزيد عمق البحر داخل الميناء على ستة أمتار فقط ، الأمر الذي يجعل رسو السفن الحربية الغازية ، بل ومجرد اقترابها أمراً شديد الخطورة .

ومن مراجعة الخريطة والرسومات التي وضعت لهذه الحصون والقلاع يتضح أن القلعتين الحميدية والسلطانية فقط يقعان في أنسب مكان حينما تهاجم المدينة بحراً ؛ أما برج الميناء ، وبرج الفنار ، وبرج زاوية السور فإنها وإن واجهت البحر بحكم موقعها من المدينة ذاتها تعتبر خطيرة على السكان في المدينة متى ما ركز العدو مدفعيته عليها لمبادلتها الطلقات . لذلك لم تقاوم مقاومة تذكر (بل ولعلها لم تدخل المعركة أصلاً) حينما هاجم الأسطول الإيطالي طرابلس يومي ٣ و ٤ اكتوبر كما سيرد في المكان المناسب من هذا الكتاب .

أما بقية الشاطىء الليبي ، فبالرغم من وجود عدد من النتوءات والخلجان الصغيرة على طول الجانب الشرقي منه وخاصة خليج طبرق الذي يعد أحسن مرفإ وأحصنه في كل الشمال الأفريقي – فيما يقول الاستراتيجيون – إلا أن الأتراك لم يعنوا بها ولا اتخذوا من أيها ميناء حربياً لأسطولهم ، وليس بالقرب منها مراكز تجمع بشري ذات شأن تسمح بتحويلها إلى مرافىء تجارية هامة تستوجب التحصين . وحتى طبرق التي اشتهرت في الحرب العالمية الثانية لاستراتيجيتها الحربية لم يكن يعسكر بها عدا حامية صغيرة يكونها في مجموعها ضابط وخمسة

وعشرون جنديـــاً فقط كل أسلحتهم البنادق العتيقة الطراز وغـير الأوتوماتيكية .

القيادة والتنظيم

لم تكن الأسلحة فقط هي كل ما تحتاجه هـــذه الحامية العثمانية الهزيلة ، لقد كانت قبل ذلك في حاجة إلى قائد عام ينظم عملها العسكري ويوحد بين حركاتها ضد العدو في الميادين المختلفة . فقد استدعي والي تلك الإيالة إلى الآستانة وأعفي من منصبه منه حوالي شهر ونصف الشهر من وقوع الغزو ، ولم تعين الآستانة والياً ولا قائداً عاماً عاماً يحل محله حتى حـدوث العدوان وبداية الغزو ، وكان هـــذا الوالي يشغل إلى جانب وظيفته كوال منصب القـــائد العام للقوات المرابطة في الولاية .

وقد أدى انعدام القيـادة العامة ساعـة الغزو إلى نشأة ظاهرة غريبة ، (في ميادين طرابلس وحدهـا)، هذه الظاهرة تتمثل في انعدام الترابط بين الجبهات التي تكونت للدفاع مما أدى إلى استقلال هذه الجبهات عن بعضها البعض الأمر الذي جعل المقاومة غير منظمة ، وغير موحدة؛ وقد ظلت هذه الظاهرة الخطيرة مسيطرة على حركة المقاومة بعد ذلك طيلة فترة الصراع بها . وساعد هذا منذ البداية على بروز زعامات وطنية محلية عديدة نافست بعضهـا حتى أصبـح من الصعب على قادة الحركة

العسكرية منهم والمدنيين إخضاع هذه الزعامات لقيادة موحدة .

واقتصار هذه الظاهرة على طرابلس دون برقة وفزان يرجع إلى انعدام هذا العامل أصلاً ولاسيما فيما يتعلق ببرقة ، فقد كان متصرفها وقائدها حين الغزو يمارسان سلطاتهما السابقة . كما يرجع إلى انتشار الدعوة السنوسية ، وسيطرة شيوخ زواياها على المجتمعات المكونة لمدن وقرى ومنتجعات برقة وواحات فزان سيطرة روحية امتدت مع الزمن إلى الجانب المادي (الادارة المدنية) .

هذان العاملان حالا دون بروز الزعامات المحلية المتعددة بصورة واضحة كما حدث في طرابلس بدرجة تصل إلى حد التأثير على وحدة القيادة التي تمارسها السلطات التركية في بادىء الأمر ، ثم مارسها السنوسيون من بعد ذلك واستمروا على ممارستها حتى نهاية الصراع [1] .

الوضع المالي

وكانت حكومة الولاية فوق هذا وذاك لا تمتلك في خزائنها من المال ما يكفي لتسيير دفة الادارة مدنياً بها حتى في وقت السلم ، وكانت الخزانة العثمانية تسد العجز المالي في ميزانية هذه الولاية باستمرار .

---

١ – ستبدو هذه الظاهرة في حوادث التاريخ التالية للغزو ، وستستمر حتى نهاية الصراع مع المستعمر وتكوين الدولة الليبية الأولى (إمارة برقة ، إمارة ليبيا بعد بيعة غريان) ،

ولم يكن في البلاد من أصحاب رؤوس الأموال ولا من رأس المال الوطني ما يمكن أن يساعد على سد هـــذا العجز نتيجة تأخر الولايـة الاقتصادي والادارات السيئة الأمر الذي يشل حركة المقاومة ويثبط عزائم الرجال المدافعين والعاملين.

والمال هو عصب الحركة وقوتها الدافعة في كل زمان ومكان إذ أن الجندي أو المواطن المتطوع للقتـال المنصرف إليه لا يمكنه أن يقبع في الخندق أو يدخـل المعركة ثم يؤوب فلا يجد هو ولامن يعولما يتقوتون به. واذا تجاوزنا عن الاعانات الماليـة التي كانت ترد على المجـاهدين في شكل تبرعات من شتى الأقطار العربية ـ الإسلامية ، وإذا استثنينا المبالغ الهزيلة التي كانت تركيا تهربها إلى الولاية حتى صلح لوزان فإننا لا نعرف مورداًواحداً خارجياً اعتمدت عليه حركة المقاومة طوال فترة الصراع.

وهذا أمر غريب حقاً إذا علمنا أن ما من حركـة ثورية في العصر الحديث قامت واستمرت إلا واستطاع المؤرخون أن يكتشفوا المورد المالي الذي اعتمدت عليه ، ولم أعثر على نص واحد فقط في جميع ما اطلعت عليه مما كتب عن حوادث هذه الفترة يشير إلى إمدادات غير الذي ذكرت، وقد توقفت جميعها أو كادت بعد السنوات الأولى من الصراع ، وهي فوق هذا ليست بذات قيمة كبيرة أبداً مما يجعلني أقرر

أن الليبيين اعتمدوا على امكانياتهم المحدودة ، وكان موردهم الذي يستمدون منه سلاحهم وذخيرتهم وزادهم هو العدو نفسه ، وهي أرضهم وحدها وما تنتجه من مزروعات .

الحصار البحري

يضاف إلى كل هذا ذاك الحصار البحري المحكم الذي ضربه الأسطول الإيطالي على شواطىء ليبيا حتى قبل إعلان الحرب ، حصار دفع ببعض المتفائلين من الساسة الإيطاليين إلى القول بأنه يمكن الاعتماد عليه وحده في حمل قوات الولاية العثمانية على الاستسلام بعد حين ودونما قتال .

والأسطول الحربي الإيطالي أسطول كامل الاستعداد ويكفي لتقدير مدى قوته الحربية العلم بأن ثلاثة شواطىء من ايطاليا تعتمد عليه في الدفاع عنها ، وبأنه استطاع أن ينزل منذ الأيام الأولى بالأسطول العثماني القديم المتداعي ضربات قاصمة جعلته يفر من الميدان ويلجأ إلى ما وراء الدردنيل ، ثم لم يغادر ملجأه فيما يبدو حتى نهاية الصراع ، اذ عجزت تركيا عن أن تعزز حامياتها في ليبيا بحراً طوال الفترة ، وحتى القواد الذين جاءوا إلى الميدان لم يدخلوا إلى البلاد الا تسللاً عن طريق مصر أو تونس المتاخمتين لها .

حالة الشعب

والى جانب انعدام القيادة والجند والسلاح والذخيرة والمال في جبهات القتال التركية في ليبيا ، والى جانب الحصار البحري المفروض على الشواطىء الليبية وهي عوامل تكفي وحدها بل ويكفي بعضها لجعل استمرار الكفاح أمراً مستحيلاً ، تميط المذكرة الليبية عن عامل آخر أشد وطأة على المدافعين منها جميعاً . تلك هي تعرض البلاد للمجاعة نتيجة للجفاف والجدب الذي أصاب البلاد في أرزاقها وفي ثرواتها الحيوانية خلال السنتين الأخيرتين مما نشر الأوبئة وحمل على الهجرة والتخلي عن الوطن بحثاً عن الخبز حتى قبل حدوث العدوان وقبل أن يفرض الحصار البحري عليهم .

ميزان الوضع بين القوتين

عدد من الجند لا يكفي حامية بسيطة لحفظ الأمن في بلاد واسعة مترامية الأطراف حتى زمن السلم ، وهم فوق ذلك لا يملكون من الأسلحة والذخيرة ما يمكنهم من تأدية الواجب المقدس ، وليست لهم قيادة موحدة تقودهم وتربط بينهم وتوحد تحركاتهم فتنسق جهودهم وليس في البلاد قوات مدربة من الوطنيين (الرديف أو الاحتياطي) ، وهي فوق ذلك مفتقرة إلى المال اللازم لاستمرارها في العمل ، والشعب الليبي نافر

منها لغطرسة وتعالى قوادها وجنودها ولجهلهم للغته وتقاليده وهو فوق ذلك يقاسي محنة الجفاف والجوع والتشرد وتتهدده الأوبئة والأمراض الفتاكة التي تصاحب محنة الجفاف والقحط عادة ، وقد ضرب عليه وعلى القوات التركية ذاتها حصار بحري محكم عزل البلاد بمن فيها عن الاتصال بالخارج عامة وبتركيا على وجه الخصوص ؛ والى جانب كل هذا قطع الاتصال التلغرافي بين الحامية والقيادة العليا وبين الادارة والوزارة التركية فأصبحت الإيالة في حيرة من أمرها غير قادرة على تحديد موقفها من الغزاة المعتدين فترة من الزمن ، وان كانت قصيرة فقد كانت كافية ليوطدوا أقدامهم في بعض الأماكن من الشاطىء الليبي .

هذه هي حالة ليبيا مدنياً وعسكرياً يوم داهمها الاسطول بقوات غزوه الجرارة وأسلحته الفتاكة التي تعد بالنسبة إلى عصرها حديثة ، ومن وراء هذه القوات دولة مستعدة تمام الاستعداد لإمداده بالمزيد من الرجال والاسلحة والذخيرة والزاد. فكيف يمكن الصراع بين قوتين غير متكافئتين في أي شيء سوى الرغبة في الصراع احداهما طمعاً وعدواناً والأخرى دفاعاً عن الوطن وإيماناً به وذوداً عن مقدساته ؟ إن الوضع جميعه كان يوحي بالجواب الطبيعي الذي صرح بـه بعض المتفائلين من الإيطاليين حينما قدر لفترة المقاومة عدداً من الأسابيع ، وحدده غيرهم ممن يزن الأمور بأن الصراع قد يستمر لبضعة أشهر . ولكن قوة واحدة في أبناء هذا الشعب تغلبت على القوات الإيطالية الهائلة ، وذلك الجيش

حسن يوسف التلمودي

الجرار، وعلى المجاعة، وعلى كل شيء .. هذه القوة هي قوة التصميم في الشعب الليبي على الدفاع عن وطنه وعن مقدسات هذا الوطن المادية والروحية، تصميم انعكست ظلاله على تاريخ هـــذه الفترة وفي معارك الحرب الليبية التي سنرويها في بقية فصول هـــذا الكتاب وفي غيره من كتب السلسلة إن شاء الله .

الفصل الثالث

طلائع الغزو

خطة الحرب الايطالية العامة

كانت القيادات العسكرية في إيطاليا حينما أقدمت دولتها على استعمار ليبيا تخضع لعامل نفسي معين سبب لها عقدة أو مركب نقص بدت ظلاله واضحة في تجهيزاتها العسكرية للغزو المتوقع ، وكانت نشأة هذه العقدة النفسية مع هزيمة الاحباش لهم في عدوة وغيرها من أريتريا ؛ فقد أورث الجندي الإيطالي مركب نقص تمثل في شعوره بقلة مستواه في قدراته الحربية وبضآلة خبرته في هذا الميدان . لذلك كانت خطة قيادات إيطاليا العسكرية الاولى هي القيام بهجوم كبير في مكان واحد من ليبيا يحقق نصراً باهراً ينفي عن الايطاليين التهمة التي لصقت بهم في أنهم « ليسوا رجال حرب » ويرفع من معنويات الجندي الايطالي [1] .

---

١ — ... Gen. Carlo Montu Storia dell' Artiglieria ccc ص ٤١٥ . ويقول هذا الجنرال بالحرف الواحد ما ترجمته « اتخذت الترتيبات لتكوين جيش واحد على نطاق واسع تكونه فرقتان قصد به القيام بالغزو على ليبيا .

ولكن الساسة الايطاليين الذين كانوا يشعرون هم أيضاً بعقدة نفسية أو مركب نقص منشؤه انعدام المستعمرات القيمة اقتصادياً ويودون لو أثبتوا عظمة ايطاليا بمد نفوذها السياسي الفعلي الى شاطىء إفريقيا الشمالي حتى تساوي بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدول الاستعمارية كان لهم تخطيط آخر (هو الذي نفذ) قام أصلاً على احتمالين:

الاول : هو ان احتلال عدد من المناطق الهامة على طول الساحل الليبي سيرغم تركيا — وهي التي لم تبد في سابق تاريخها أية مقاومة حقيقية لاستعادة الولايات التي سلبت منها — على التسليم بالأمر الواقع ، ثم العمل على إنهاء حالة الحرب مع ايطاليا .

والثاني : هو أن الليبيين الذين ظن خطأ — بناء على قيل للوزارة من أنهم يأنفون من الأتراك ولا يطيقونهم — سوف لن يحملوا السلاح لمقاومة الاحتلال الإيطالي مساندة للأتراك .

واستناداً إلى هذين العاملين فقد وضعت خطة الغزو بحيث تقوم الحملة باحتلال أهم المراكز والمدن الساحلية من ليبيا وحسب على أن يتم إخضاع المناطق الداخلية فيما بعد [1] . وفي تفصيل أكثر تقرر أن تقوم الفرقة الاولى مضافاً إليها جميع الوحدات الإضافية بما في ذلك فرق

---

١ — Ereccani : -Enciclopedia Italiana Vol · XIX p. 1060

الشغيلة بالهجوم على مدينة طرابلس التي عـدت أقوى وأهم المناطـق من ليبيا ويحتمل أن يكون الدفاع عنها أشد منه على غيرها . وأن تقوم الفرقة الثانية بمساندة الفرقـــة الأولى في هجومها على طرابلس اذا حتمت الضرورة ذلك وإلا وجهت إلى احتلال مدينة بنغازي أو أية منطقـــة أخرى من برقة [١] .

وكان الأمر الصادر عن القيادة العليا للحملة إلى الجنرالات والضبا ط يتضمن النقاط التالية :

أولاً : أهداف الحملة هي الاستيلاء على طرابلس وضواحيها واذا استدعى الأمر باستخدام القوة .

ثانياً : سلوك الحملة هو الفصل ما أمكن بين وضع الأتراك باعتبارهم متسلطين ، ووضع العرب باعتبارهم مسيطراً عليهم .

ثالثاً : احتلال بنغازي .

يلي ذلك مطالبتهم بدراسة إمكانية التسلل إلى دواخل ليبيا ، وتعيين حدود الاحتلال في كل من برقة وطرابلس . ومن هذا يتضح أن الخطة السياسية التي نفذت عسكرياً حين الغزو ليست تعديلا جوهرياً للخطة الأخرى العسكرية ، والقائمة على تركيز الهجوم على موضع واحد من كل ليبيا في البداية .

---

١ — Gen. Carlo Montu : Storia dell'Artiglieria ccc .. pag 420 .

ويبدو للباحث المدقق فيهما خطأ التخطيطين أو الخطتين معاً منذ أول وهلة سواء منهما تلك الخاصة بالقيادة العسكرية أو تلك التي قامت على التقدير السياسي لوضع البلاد ولموقف تركيا المحتمل من هذه الحرب : ففيما يتعلق بالخطة الأولى نجدها قد قامت أصلا على أساس الدخول في معركة فاصلة مع قوات العدو في ليبيا ، ولكنها أغفلت فلم تُدخل في حسابها أن هذا العدو كان لا يملك قوات متجمعة في أي مكان من ليبيا كلها الامر الذي يجعل من المستحيل عليهم الدخول معه في المعركة الفاصلة التي بنوا خطتهم عليها ، واعدوا حملتهم على أساسها ، وفيما يتعلق بالثانية دلت هي الاخرى على جهل فاضح للفرق البين بين وضع الشعب الليبي من حيث الحضارة والرقي الفكري وبين الشعوب البدائية في أواسط إفريقيا ذلك أن السؤال الذي سيجابه الإيطاليين به هو أنه اذا كان الاتراك متسلطين على البلاد فما هو موقف الايطاليين فيها وبماذا يمكن أن يوصف إذا لم يكن كذلك ؟ وعلى سطحية الملاحظة لدى واضعي هذه الخطة وعدم إدراكهم للفكر الاسلامي إذ أن موقف الليبيين من الاتراك وان اتسم في بعض الاحيان بالصرامة والنفور إلا أن في الاتراك خلافة المسلمين التي يدينون لها بالطاعة والولاء ، ولا يمكن أن يتساوى مع موقفهم من الايطاليين ـ بله يفضه ـ فهؤلاء لا يدينون بالدين نفسه ثم إنهم لم يداروا ولم يخاتلوا حتى يخدعوا الليبيين بل صرحوا علناً وجهاراً بأنهم إنما جاءوا إلى ليبيا ليستعمروها ويستغلوا خيراتها ، وتناسى واضعو الخطة ـ بغض النظر عن موقف الاتراك والايطاليين ـ أن هؤلاء الليبيين

هم أصحاب هذه الأرض ومالكوها الشرعيون ، وأنهم حينما يقفون من الغزو الإيطـــالي موقف الخصم العنيد لا يفعلون ذلك لمناصرة الجنود الأتراك وحسب فهم إنما يدافعون عن حق هم وحدهم مالكوه وأصحابه ، وجميع من عداهم مغتصب له متسلط عليه . ولكن ساسة إيطاليا جهلوا مدى يقظة الشعب الليبي لذاتيته وتجاهلوا أمر أعظم قوة روحيـــة في الشرق العربي آنذاك كان مركزها ليبيا فلم يحسبوا للسنوسية حساباً بالرغم من أنهم كانوا على علم تام بموقفها من الفرنسيين في السودان ، ولم يدخلوا في حسابهم ما أوجدته هذه الدعوة بين الليبيين من تماسك وترابط وحّد صفوفهم وجمعهم تحت قيادة موحدة لن تخضع بسهولة لهذا الأمر الواقع ، وليس في هذا جميعه ما يمكن أن يعد خافياً على أي إنسان اهتم بليبيا ودرس مجتمعها في ذلك الحين. كما دلت من جهة أخرى على سطحية التفكير السياسي ذلك أن دراسة بسيطة تجعلهم لو فعلوا يدركون أن الإمبراطورية العثمانية حينما تتنازل عن مصر أو تونس أو الجزائر فإنما تفعل ذلك وهي آمنة على هيبتها وكرامتها. فجميع هذه الأقاليم لا تعتبر خاضعة لها خضوعاً مباشراً ، وقد كان كل منها يتمتع حين اغتصابه بجانب كبير من الحكم الذاتي . ولكنها وهي الامبراطورية صاحبة المجد العريق حينما تترك ليبيا للايطاليين منذ أول جولة ، لا تفعل ذلك إلا بعد أن تداس كرامتها كدولة ذات سيادة. ذلك أن ليبيا ليس فيها حاكم مستقل أو شبه مستقل تحمله الاستانة مغبة عمله .

نعم لو درست إيطاليا فروق تبعية الشمال الافريقي للدولة العثمانية

لاكتشفت خطل رأيها وفساد أحد الاحتمالين اللذين أقامت عليهما خطتها الحربية العامة ، ولو قدرت الليبيين حق قدرهم وأعطت دراستها لهم وللسنوسية التي تنتشر بينهم زواياها لأدركت عقم تفاؤلها الذي قام عليه الاحتمالين في خطتها للغزو الاستعماري ، ولكنها لم تفعل فكان لا بد أن يفشل التخطيط، وان تتحمل إيطاليا نتيجة هذا الخطإ الذي كبدها خسائر حرب امتدت لأكثر من عشرين سنة كاملة .

الخطة الحربية التركية العامة

أما تركيا فلم يبد مما حدث بعد الغزو من تصرفات أنها قامت بوضع أية خطة حربية عامة . وإذا كان من الطبيعي أن لا تكون هناك ثمة خطة حربية لتركيا في ليبيا قبل اعلان الحرب بحكم الموقف السلبي الذي سبق أن ناقشناه في « بداية المأساة » فإن من المنطق أيضاً أن تفكر القيادة العثمانية في وضع خطة للدفاع عن الارض المغزوة تمكنها من استخلاصها من يد الأعداء بعد وقوع الاعتداء .

لقد كانت ليبيا في العهد العثماني الثاني مجزأة إدارياً وربما عسكرياً كذلك إلى منطقتين (ولاية طرابلس الغرب ، متصرفية بنغازي) مفصولتين في كثير من النواحي ، ولم يحدث تغيير في هذا الوضع بعد الاعتداء ، فقد ظلت لطرابلس قيادتها المستقلة عن قيادة برقة التي كانت لا ترتبط معها عسكرياً بأية رابطة ؛ وكان الجيش التركي المحارب في برقة

لا صلة له بالجيش التركي المحارب في طرابلس. وذلك في وقت كان العدو الذي يحاربه الجيشان في المنطقتين واحداً في جنسيته وفي قيادته وفي أهدافه .

أما فكرة تعزيز الحامية التركية في ليبيا فقد اعتمدت فيها كما يبدو لا على الجيش العثماني، ولا على الأسطول التركي ، وإنما على بعض القادة الذين هربتهم إلى داخل ليبيا تهريباً من طريق تونس ومصر ، وعلى إلهاب الحماسة الدينية للشعوب العربية والإسلامية ودفعهم للتطوع في صفوف المجاهدين . ومن الطبيعي أن تركيا بهذا الموقف السلبي الغريب حقاً كانت تبرهن عن وهنها وضعفها الذي يحاول المدافعون عنها تبريره بأنها كانت في وضع داخلي لا يسمح لها بالدخول إلى المعركة جدياً، فقد كانت الولايات العثمانية في أوربا بركاناً ينذر بثورة عارمة ، وكانت حالة اليمن لا تزال متوترة ، وكان الموقف في الحجاز ينذر بثورة عارمة ، وكانت تركيا ذاتها تتعاورها فتن واضطرابات نتيجة قرب عهدها بالانقلاب الذي قام به جماعة الاتحاد والترقي .

ويبدو أن تركيا اعتمدت في خطتها العامة ـ وإن كانت لها خطة ـ منذ الوهلة الأولى على العنصر الوطني في تعزيز حاميتها المقاتلة في ليبيا اعتماداً كلياً، كما تركت لضباطها حرية التصرف بحسب الظروف وجميع هذا لا يدل على أن القيادة العثمانية قد شغلت نفسها بوضع أية خطة عامة للدفاع عن ليبيا ، وقد يكون في ذلك برهان على أنها اكتفت طيلة أيام

الحرب وحتى خروجها من الميدان بتلك التصرفات التي تمليها الظروف والأوضاع .

الاسطول الايطالي يداهم طرابلس ويطلب التسليم

كانت إيطاليا ومنذ أن قررت الإقدام على احتلال ليبيا العثمانية عسكرياً في النصف الثاني من سبتمبر قد ضربت على شواطىء هـذه الولاية ومرافئها نوعاً من الحصار البحري لم يتمكن من اختراق نطاقه غير السفينة « درنة » التي اتخذتها إيطاليا ذريعة لإعلان الحرب ، الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد بأن الإيطاليين كانوا قد تعمدوا إغفال أمر اختراقها لخط الحصار البحري المضروب ليجعلوا منها مبرراً لعدوانهم الغاشم .

وبالرغم من أهـالي مدينة طرابلس فيما يرويـه الزاوي في جهاد الأبطال (ص ٤٤) كانوا يشاهدون قطع الأسطول الإيطالي تجوب البحر عند الأفق منذ أول يوم من قيام الحرب (٢٩ سبتمبر) فإن مداهمته للمدينة قد تأخرت إلى الثاني من اكتوبر .

وفي هذا اليوم قدم الأميرال فارافيلي Faravelli إنذاراً إلى السلطة المحلية طلب فيه تسليم المدينة دونما قتال ولكن القائد العسكري طلب فسحة من الوقت للرد[١] .ويروى الطاهر الزاوي في كتابه جهاد الأبطال

---

١ – Gaetano Cicerone : - La terza Colonia italiana P. 198.

(ص ٤٦ / ٤٧) تفاصيل حوادث هذا اليوم فيقول : « وفي اليوم الثاني من اكتوبر أرسل قائد الأسطول إلى وكيل الوالي (الدفتردار) الأميرال فافاريلي (يقصد فارافلي (في بارجة حربية ومعه قنصل إيطاليا في طرابلس ليطلب منه تسليم المدينة في الحال ، واخلاءها من كل ما يعوق الجيش الايطالي في نزوله إلى البر [١] ، وكان نشأت بك [٢] وهو أركان حرب الجيش العثماني بطرابلس مع الدفتردار ، فأجاباه بأنهما لم يتلقيا أمراً من الباب العالي بالتسليم، وأنهما يريان تأخير كل عمل حتى يأتي الأمر من الباب العالي. وما دام يمكن حل المسالة ودياً فلا فائدة من إراقة الدماء . فرفض الأميرال الإيطالي قبول ذلك وقال : « ان مسألة الأسطول والجيش تتعلق بكرامة الأمة الايطالية ، والأمر الذي صدر لا يمكن مقاومته ، وسيبدأ الحرب عما قريب » فأجابه وكيل الوالي

---

١ – كنت حاضراً انا وجمهور كبير من الطرابلسيين واقفين بقرب دار الحكومة (السرايا الحمراء) حينما تقدمت بارجة الاميرال فافاريلي ونزل منها وصعد الى وكيل الوالي .. الخ

(الزاوي)

٢ – كان نشأت بك وقت الاحتلال الايطالي رئيس اركان حرب ، وبرتبة أمير آلاي ، وكان منير باشا لواء ووكيل كومندان ، فلما مرض منير باشا عين نشأت بك بدلا منه ، ثم جاءه الأمر برتبة وال وكومندان فخلت وظيفة رئيس اركان حرب التي كان يشغلها فشغلها فتحي بك الذي كان ملحقاً بالسفارة التركية في باريس .

وقد جاء الأمر بتعيين نشأت بك والياً وكومنداناً على طريق تونس ، ومنها الى ذهيبة إلى نالوت وكان الموظف المسئول عن هذه المراسلات قائمقام نالوت الدكتور رأفت بك وكانت الاخبار تأتي إلى نالوت رأساً في خط مستقل .

(الزاوي)

ونشأت بك بما يأتي : « ان جيش طرابلس وسكانها لا يصغون إلى أوامر تصدر إليهم من إيطاليا ، وهم يعرفون كيف يحافظون على وطنهم » وكانت هذه الكلمة آخر ما قيل في محاولات دفع الشر ووقاية الأرواح من الموت ، فخرج فافاريلي بدون تحية ... الخ » .

والذي نأخذه على رواية الزاوي هنا هو زعمه بأن قائد الأسطول (ويعني الأميرال أوبري) أوفد فارافيلي بينما كان القائد العام في ذلك الحين بعيداً عن طرابلس إذ أنه هو الذي احتل ميناء طبرق على ما سيرد، وكان الاميرال فارافيلي قائداً للأسطول الثاني ونائباً للقائد العام للقوات البحرية، فليس من المعقول أن يكون هو الذي نزل شخصياً لمفاوضة السلطات المحلية على التسليم بل ربما كان أحد قواد سفن الأسطول الثاني الذي يترأس قيادته فارافيلي هذا .

وكان قائد الأسطول الايطالي قد بعث بصور من إنذار التسليم داخل حدود أربع وعشرين ساعة فقط إلى جميع قناصل الدول الاجنبية عارضاً عليهم وعلى رعاياهم الالتجاء إلى سفن الاسطول إن رغبوا في ذلك حرصاً على سلامتهم الشخصية التي تعهدت دولته بالمحافظة عليها قدر الاستطاعة .

موقف الحامية من أمر التسليم

جمع نشأت بك رجال الحكومة وأعيان البلاد وأخبرهم بما دار

بينه والأميرال قائد الأسطول وقرأ عليهم ترجمة نص الانذار الموجه إليه من قائد الاسطول الايطالي . وبعد تداول وأخذ ورد قر رأيهم على وجوب الدفاع عن البلاد وصد العدو عن أرض الوطن أو الاستشهاد في سبيله .

وعقد نشأت بك بعد ذلك مجلساً حربياً مع ضباط حاميته قرروا فيه الدفاع عن المدينة إلى آخر جندي منهم ولو أدى إلى الموت تحت أنقاضها إن لزم الامر . غير أنهم وقد كانوا يعرفون ضعف مركز الحامية في الدفاع قرروا أيضاً نقل مخزونهم من الذخائر والاسلحة الى خارج المدينة احتياطاً للانسحاب المحتمل في نهاية المعركة .

واجتمع قناصل الدول الاجنبية بنشأت بك لما علموا بقرارات الاعيان والضباط، فحاولوا وتمكنوا من إقناع القائد وضباطه بعدم جدوى المقاومة بما في المدينة من حصون شبه منهارة ، ومدفعية قليلة قصيرة المرمى قديمة النوع رديئته، وطالبوه حقناً للدماء ولأرواح الاطفال والنساء والعجزة بوجوب الانسحاب، وابلغوه ثقتهم في أهل المدينة وفي الجندرمة وأنهم عدم الاستجابة لنداء قائد الاسطول الايطالي وأنهم أبلغوه قرارهم في رسالة خلاصتها أن القناصل ورعايا دولهم لهم الثقة التامة بالحكومة العثمانية المحلية ، ولذلك فهم قد عزموا على البقاء في المدينة [1] .

---

١ — الطاهر الزاوي: جهاد الابطال (ص ٤٩) . ويروى ان الذي قام بكتابة الرسالة =

ولما لم يكن لدى نشأت بك وحاميته من وسائل النقل ما يكفي لنقل الأسلحة والعتاد الحربي والمؤن اللازمة للجنود إلى خارج المدينة فقد استعانوا بدواب السكان ووسائل نقلهم الخاصة في ذلك ثم أطلقوا يد عامة السكان في الذي تبقى من الأسلحة والذخيرة فتقاسمها السكان وتسلحوا بها للدفاع عن النفس والمال والعرض للدفاع عن الوطن .

وبالنظر لضيق الوقت ورغبة في تغطية الانسحاب فقد كلفت حاميات الأبراج والقلاع بمقاومة وصد الأسطول عن إنزال الجنود لاحتلال المدينة حتى تتم عملية الانسحاب .

ويتضح مما حدث خلال المعركة البحرية هو أن خطة الاتراك التي قصد من ورائها تغطية الانسحاب من المدينة قامت أصلاً على إهمال أبراج: الرصيف ــ الفنار ــ زاوية السور الشمالية الغربية ، والاكتفاء بقلعتي الحميدية والسلطانية وحدهما في تعطيل العدو عن إنزال قواته ، وذلك أولاً حتى لا تتعرض مباني المدينة وسكانها لقنابل الأسطول تعرضاً

= هو قنصل امريكا المستر وود وان قنصل فرنسا توبلين فيس قام بترجمتها الى الفرنسية. ثم يواصل الزاوي الحديث في الموضوع فيروي ان القناصل زاروا في صباح اليوم الثالث من اكتوبر نشأت بك والدفتردار ورجال الادارة في مقر الحكومة لتوديعهم وانهم اظهروا لنشأت بك والمشير منير باشا والدفتردار ومدير الامور السياسية اسفهم لما حصل ، فقال لهم مدير الأمور السياسية : « ان هذا الاعتداء ربما كان معقولا منذ خمسمائة سنة ، ولكن في القرن العشرين يعد توحشاً » ثم يعلق الزاوي فيقول ان الذين شاهدوا هذه الحادثة « ان قنصل امريكا اعتبر هذا الكلام توبيخاً للأوربيين عموماً وكان السبب فيه توحش الايطاليين واعتداءهم الفظيع » .

مباشراً [١] ، وثانياً لحاجة المنسحبين إلى مدفعية تلك الابراج في المعارك المتوقعة مستقبلاً .

ولما شعر السكان بعزم الاتراك على ترك المدينة هجرهـا منهم الكثيرون فلجأوا إلى القرى والضواحي القريبة حاملين ما خف وأمكن حمله من متاع .

قصف المدينة بمدفعية الاسطول

وفي الساعة الثالثة والدقيقة الثلاثين من بعد ظهر يوم ٣ اكتوبر ١٩١١ أصدر الأميرال فارافيلي أمره إلى السفن التابعة له [٢] لتبدأ في قصف المدينة وحصونها بالقنابل فشرعت في ذلك على الفور [٣] . وبهذا بدأت المعركة الاولى بين الاتراك والايطاليين في ليبيـا . وبالطبع لم

---

١ - تدبر هذا بمقارنة خريطة الاحتلال لهذه المدينة .

٢ - كانت هذه السفن هي بينديتو برين Benedetto Brin ايما نويـل فليبرتو Emanuele Filiberto ، جاريبالدي Garibaldi فيروتشيو Ferruccio كواتيت Coatit من الأسطول الثـاني . والملك امبرتو IL Re Umberto ، ساردينيا Sardenia ، سيشيليا Sicilia كارلو البيرتو Carlo Alberto من السفن المدرسية . وبارجة القيادة فاريس Varese . اما الطاهر الزاوي فيحصر عدد البوارج التي قامت بعملية القصف لحصون المدينة في ست قطع فقط ولكن الايطالي اوثق رواية وبه نأخذ .

٣ - الطاهر الزاوي في جهاد الابطال يجعلها الساعة ١٥،٣٥ ودائرة المعارف الايطالية : الساعة ١٥،٣٠ والجنرال كارلو منتو في تاريخ المدفعيـة الايطالية يتفق مع دائرة المعـارف الإيطالية . وقد اخذت به لتفاهة الفرق ، ولاحتمال عدم دقة الآلة التي اعتمد عليها في اي من الروايتين .

يقاوم من قلاع المدينة وابراجها سوى القلعة الحميدية والقلعة السلطانية ، بينما توقفت بقية الابراج تباعاً بعد فترة من بدء المعركة ربما لسحب الاتراك مدفعيتهم منها تنفيذاً للخطة التي احتملنا رسمها وأشرنا إليها .

استمر تبادل إطلاق النار بين القلعتين وسفن الأسطول حتى غروب الشمس ، وكانت مدفعية الاسطول قد أسكتت مدفعية القلعة السلطانية ودمرتها قبل التوقف عن تبادل إطلاق النار مع المساء .

وفي صباح اليوم التالي استؤنف تبادل النيران من قبل الاسطول والقلعة الحميدية التي استمرت في المقاومة وحدها طوال ذلك اليوم . ولم يتوقف القتال حتى أسكتت مدافع القلعة وتوقفت عن الدفاع قبيل المغرب بقليل .

ويقول الزاوي أن من بقي بها حياً من جنود الاتراك قد تمكنوا من التسلل تحت ستار الليل حيث انضموا إلى بقية أفراد الحامية التي تمكنت من الانسحاب بكاملها إلى خارج المدينة بعتادها خلال فترة المقاومة . وهذا إن صح يمكن معه اعتبار عملية تغطية الانسحاب قد نجحت تماماً . وليس في رواية الزاوي هذه ما يخالف أو يختلف مع المصادر الايطالية التي تؤكد هي الاخرى أن القلعتين كانتا خاليتين من الجنود حينما دوهمتا في صباح اليوم الخامس من اكتوبر كما أكدت جميعها أن المدينة ساعة احتلالها كانت خالية تماماً من الجنود الاتراك ، ومما يزيد رواية الزاوي هنا قوة عدم الاشارة في أي منها إلى أسرى أتراك في هذه العملية .

الاعتداء على طبرق واحتلالها

استقى الاميرال أوبري Aubry قائد القوات البحرية خبراً يفيد أن اسطولاً انجليزياً يجتمع في فرضة السلوم تأهباً لاحتلال بلدة وميناء طبرق فبادر بمباغتتها بفرقة الاسطول الاول صباح يوم ٤ اكتوبر ١٩١١ مؤملا الاستيلاء عليها دونما مقاومة . ولكن الضابط التركي الصغير الذي كان قائداً لحاميتها رفض التسليم وصمم على الدفاع عنها بالرغم من ان رجاله كانوا لا يتجاوزون ٢٥ جندياً فقط انضم إليهم عـــدد من سكانها القلائـل رفعوا العدد إلى حوالي المائـة رجل فيما تقول بعض المصادر الايطالية .

تجمعت هذه الجماعة الصغيرة المنعزلة العزلاء حول قصر الحكومة بها ولماذا ؟ ليجابهوا أسطولاً ضخماً أراد بلادهم وأبوا التسليم للعدو فيها فنشبت معركة بين القوتين استمرت إلى الساعة العاشرة حينما اطاحت مدفعية الأسطول بسارية العلم العثماني ونزلت فرقة من جنود البحارة من السفينة فكتور عمانويـل Fittorio Emanuele عددهـا حوالي الاربعمائة جندي تحت قيادة الضابط فرانك Frank . وبعد مقاومة اخرى عنيفة انسحبت الجماعة المدافعة إلى خارج المدينة فاحتلها الايطاليون .

هكذا كانت طبرق هي اول بقعـة من ارض الوطن تطؤها اقـدام المحتلين الغزاة . وكانت معركة طبرق بالرغم من قلة عدد من خاضها من

الوطنيين والاتراك ، وبالرغم من ان النصر لم يكن حليفهم فيها هي اول صفحة من تاريخنا الحديث بمجده وبطولاته فهذه الجماعة الصغيرة من الجند الاتراك ومن ناصرها من لوطنيين لم تتقاعس ولم تهن ولا وهنت امام البوارج والطرادات بمدفعيتها الثقيلة وجنودها العديدين . وبهذا اثبتت بطولة وسجلت باقدامها مجداً وفخاراً دللت به على شجاعة شعب ابى التفريط في شبر من الارض المقدسة ، ارض الوطن العزيز ،وجعل من نفسه لها الفداء .

احتلال مدينة طرابلس

بالرغم من ان مقاومة القلعة الحميدية (آخر القلاع مقاومة) قد توقفت منذ يوم ٤ اكتوبر عن المقاومة فإن قيادة الغزاة لم تجرأ على اقتحام المدينة واحتلالها في ذلك ليوم ، فأجلت غزوها إلى اليوم التالي .

وفي صباح ٥ اكتوبر تقدم من الاسطول الايطالي البوارج: فاريس، جاريبالدي ، وفيروتشو إلى مدخل الميناء حيث أمطرت بوابل من مدافعها شواطىء المدينة ومساكنها ومبانيها من غير أن تكون هناك أية قوة تقابلها وتصد عدوانها ولا حصون أو أبراج تبادلها إطلاق النيران مما برهن على وحشية وقسوة وجهل بالتكتيك الحربي بدت جميعها في المعارك التالية في هذه البلاد أشد وضوحاً .

وبالرغم من هذا الهجوم اللا مبرر على الاطلاق فإن البحارة الايطاليين

لم ينزلوا لاحتلال المدينة الاّ بعد منتصف النهار . وهكذا كانت مدينة طرابلس البقعة الثانية من أرض الوطن التي تطؤها أقدام العدو وثاني مركز سكنى يحتلونه .

ونلاحظ هنا أن جند الاتراك المشاة لم يشاركوا في الدفاع عن المدينة ، بل أن المعركة فيها انحصرت منذ الوهلة الاولى بين مدفعية الاسطول الايطالي ومدفعية القلاع التركية ،[1] وأنها انتهت باسكات هذه القلاع . والآن وبعد مضي خمسين سنة لا نجد حرجاً في ان نسجل خطأ ارتكبته القيادة العثمانية في هذه المعركة بعدم دخولها في معركة ارضية مع الجنود البحارة الذين قاموا بعملية الغزو الأولى فلو أنهم فعلوا لكان من المؤكد انتصارهم في المعركة عليهم فقد كان عدد جنود الحملة آنذاك لا يتجاوز ١٧٠٠ جندي بحار وهذا ليس بالعدد الكافي للاحتلال واتخاذ مراكز على الارض حتى ولو كانت مدفعية الاسطول تحميهم وتسندهم . ولكن انسحاب الاتراك من المدينة ، والتوقف عن مهاجمتها بعد ذلك في الايام التالية ، وعدم محاولة استردادها مكن الايطاليين من أن يعززوا قواتهم في الحادي عشر من الشهر نفسه بالآلاف المؤلفة

---

١ - لم يرد اي ذكر في المصادر الايطالية او العربية لمقاومة البارجة التركية « المنصورة » التي يقول مصدر ايطالي عنها انها كانت مرابطة في الميناء . فهل هجرت من بحارتها وهل جردت من مدفعيتها وذخيرتها ؟ لا نستطيع ان نقدم جواباً.

من القوات البرية مما أصبح معه أمر استردادها في حكم المستحيل بعد ذلك .

تعيين حاكم عام (وال) لمدينة طرابلس وتنصيبه

ولا نعلم أمراً ذا بال وقع في الايام القليلة التالية للاحتلال لا في مدينة طرابلس وضواحيها ، ولا في طبرق وما حولها وهاتان هما النقطتان اللتان أنزلت فيهما البحرية الايطالية جنودها واحتلتهما من جميع الساحل الليبي .

وفي التاسع من اكتوبر أصدر نائب الأميرال لويجي فارافيلي أول منشور عسكري إلى أهالي طرابلس اعلن فيه استيلاءه على المدينة باسم ملك إيطاليا وانه عين « رفائيلي بوريا ريتشي » حاكماً عاماً لها مع منحه كامل السلطات المدنية والعسكرية ، وتملق السكان فيه بعبارات منمقة اكد لهم فيها وبها ان إيطاليا إنما اضطرت (؟) لاستخدام السلاح في استيلائها على المدينة من يد الاتراك المسيطرين عليهم وعليها ووعدوهم بمستقبل سعيد زاهر ، وحياة هانئة في ظل الحكم الملكي الإيطالي الجديد "[1] .

---

١ – Gaetano Cicerone المصدر السابق ص ٢٠٧ . وفيما يلي نورد نص المنشور في لغته =

وفي صباح اليوم التالي (١٠ اكتوبر) جرى حفل تنصيب هذا الحاكم الجديد بحضور بعض أعيان المدينة (حضروا للحفل مرغمين ؟) كما حضرها رجـــال السلك السياسي وراعي الكنيسة في طرابلس

= الأصلية باعتباره وثيقة تاريخية هامة :

Abitanti di Tripoli !

In Nome di Sua Maestà il Re d'Italia;

Noi Vice — Ammiraglio Luigi Faravelli, Comandante in Capo della Seconda squadra navale italiana, abbiamo preso possens della cità di Tripoli.

« A voi abitanti a Tripoli città e campagna, il nostro saluto.

«Avremmo Voluto venire da voi senza menomamente offendervi nella vostra quiete e nei vostri interessi ·

« Tale era il sentimento del Governo di S. M. il Re d'Italia e tale il nostro ma il Governo Ottomano e le autorità locali con il loro contegno ci costrinsero all' azione militare al bombardamento. Il nostro cuore come quello di ogni italiano spera che pochissimi e lievi danni ve ne siano venuti e potrete enerve risorciti. »

«In nome del Governo di S. M. il Re d'Italia vi assicuriamo non solo il ris - petto piu completo della libertà, della vostra religione, ma il rispetto di tutti i vostri beni, delle vostre donne, dei vostri Custumi .

« Vi annunziamo Che Sara abolita La cascrizione e vi Saranno elargiti Tutt i Possibili Miglioramenti economici .

« Vi Consideriamo fin da ora strettamente legati all' Italia.

« Pensate che l'Italia vi concede una magnianima e civile protazione.

« Con noi gridate Viva l'Italia .

« Decadute le autorità ottomane nominiamo a Governatore della citta i Contrammiraglio Raffaele Borea - Ricci con pieni poteri civili e Militari . »

الأب روسيتي P. Bonaventura Rossetti ورئيس الطائفة اليهودية «أربيب»
وانتهى الحفل بتبادل المرطبات في جو ودي[1].

هجوم أبي مليانة الليلي

لم يكن جو هذه الحفلة بهيجاً وان كانت المصادر الإيطالية تصفه بالودي ، ذلك أنه جرى عقب معركة وان كانت صغيرة أشبه بأعمال الدوريات في الخطوط الأمامية إلا أنها كانت في نفس الوقت أول صدام مسلح بين قوات الوطنيين والغزاة ، وما من شك في أن هذا التصادم خلف وراءه جوا غير عادي أفسد الحفل وأفقده بهاءه ورونقه في نظر الإيطاليين أما في نظر الوطنيين فقد كان بغيضاً ولاشك ذلك الحقل .

وتفصيل الحادث هو أنه في ليلة ٩ ــ ١٠ اكتوبر تلقى القائد كاني Cagni خبراً من جواسيسه يفيد أن القوات التركية تستعد للقيام بهجوم على الغزاة من ناحية « بومليانة » ذات الحدائق الغناء . ولا يتفق الزاوي في جهاد الأبطال (ص ٥٧،٥٨) مع هذه الرواية فهو يقول إن عدداً من الأهالي الطرابلسيين يبلغ حوالي الخمسة عشر رجلاً تسوروا على الايطاليين أسوارهم المؤقتة وهاجموهم في منطقة بو مليانة حيث امطروهم بوابل من رصاص بنادقهم فذعر الايطاليون للهجوم ،

---

١ – Gaetano Cicerone : نفس المصدر ص ٢٠٨ .

واشتركت مدفعية الأسطول في المعركة واسفر الصبح عن ثلاثة شهداء . أما مصدرنا الإيطالي فيقول في وصف المعركة بعد ما تقدم : « سارع القائد بمجرد سماعه الخبر إلى تعزيز دوريات الحرس ، كما عمل على حفر خندقين احتلهما جماعتان من بحارة السفينتين ساردينيا وبرين وجميعهم حوالي المائتي رجل .

« وحوالي الساعة الثانية من صباح يوم ١٠ اكتوبر شاهد حراس المراكز الأمامية كتلة سوداء تتقدم نحوهم في صمت ، لقد كان العدو (الوطنيين أو الاتراك) فبادر احد الضباط باطلاق إشارة مضيئة إلى السماء كانت العلامة بين الاسطول وبحارته . وسرعان ما انارت المكان قذائف مضيئة (صواريخ) انطلقت من السفينة ساردينيا واطلقت المدافع منها ومن بقية سفن الاسطول . وبهذا بدأت المعركة مع العدو، ولجأ القائد كاني إلى الحيلة فجعل يصدر أوامره إلى جنوده بالتحرك ذات اليمين وذات الشمال ليوهم الأعـــداء بأن عدد المقاتلين لديه كان حوالي الأربعة أو الخمسة آلاف مقاتل . وانسحب العـدو (الوطنيون) تاركاً أربعة من القتلى وكثيراً من الجرحى » .

وبمقارنة هاتين الروايتين لكل من الجانبين لا نجد فيهما اختلافاً كبيراً فيما يتعلق بنتائج المعركة ؛ فالوطنية تعترف بثلاثة شهداء بينما تحدد الرواية الإيطالية عددهم بأربعة وليس الواحد بالفارق الكبير. أما الجرحى الذين يسكت عنهم المصدر الليبي ويشير إليهم المصدر الإيطالي فإننا لا نرى فيها غير مبالغة للتأثير ورفع للروح المعنوية بين الجنود الايطاليين . ذلك أن

المصدر لم يشر إلى هزيمة ، وإنما إلى مجرد انسحاب سببه قنابل مدفعية الأسطول وصواريخه . وما عرفناه من أسلوب الليبيين ونهجهم في تلك الحرب الطويلة الأمد ، وما تضمنه النص الإيطـالي من رهبة وخوف الإيطاليين من تلك الكتلة السوداء التي تتحرك في اتجاه الجند ، رهبة حملتهم إلى الاستنجاد بالأسطول ومدفعيتـه وقنابله المضيئة حتى قبل أن تبدأ المعركة . وما أشار إليه النص من لجوء القائد الإيطالي إلى الحيلة لإيهام المهاجمين بأن عدد جنوده أكثر بكثير من الواقـع وهو لا يعرف عـدد المهاجمين حتى تخمينا . كل هذا يحملني على الاعتقاد بأن الجرحى لم يقعوا في يد القوات الايطاليـة وأن المصدر أو القيادة الإيطالية احتملت وجود الجرحى إلى جانب القتلى في صفوف المهاجمين احتمالاً ليس له من سند واقعي .

أما غير هذا فلا أكاد ألمس اختلافاً في الروايتين فالايطاليون لم يستطيعوا تحديد عـدد المهاجمين ليلاً فلماذا لا يكونون خمسة عشر رجلا فقط ؟ اذا كان الذعر والهلع قد سيطرا على البحارة وقائدهم إلى هذا الحد الذي تنم عنه الرواية ؟

لقد كانت هذه أول معـركة للايطاليين على الأرض بعـد عمليتي الغزو البحري ، وكان الذي يقوم بها هو الجانب الوطني وليس الأتراك فيما نرى لأسباب سيرد ذكرها فيما بعد ، وهي كما رأينا معركة لا تشرف القوات البحرية الإيطالية ، ولولا إشراك الأسطول في المعركة لألحق

الخمسة عشر بالإيطاليين هزيمة أولى تستهل بها إيطاليا تاريخها الاستعماري لليبيـا .

ولا نعرف ما المقصود من وراء القيام بهذا الهجوم الأول على وجه اليقين . وإن كنا نحتمل أن الليبيـين أرادوا منـه قطع مياه الشرب عن المدينة بتخريب القنوات التي تمـــدها به من منطقة بومليانة [1] والظاهر أنهم لم ينجحوا في محاولتهم تلك ذاك اننا نجدهم يكررون المحاولة بعد أيام قلائل . ومهما يكن من أمر هذا الهجوم الليلي فقد كان من نتائجه إسراع الحكومة الإيطالية في تسيير قوات الحمـــلة البرية إليها لتحفظ عليهم ما احتلوا وتجنبهم هزيمة ثانية تؤكد ما ألصقته بهم هزيمة عدوة منذ أعوام .

بين البحرية والجيش

كانت العمليات الثلاث السابقة التي ذكرناها قد قام بها رجال البحرية وحدهم ودون أن تشترك معهم القوات البرية التي تأخر إبحارهـــا بعض

---

١ – كان أحمد راسم باشا (١٨٨٢ – ١٨٩٨) قد زود المدينة بمياه المدينة ، واعتمدت عليها طرابلس في مياه شربها فترة من الزمن غيران ازدياد عدد سكانها جعل كمية المياه التي تصلها من هذا المورد لا تكفيها فشرع في عهد نامق باشا (١٨٩٨ – ١٨٩٩) في مدها بالمياه من عين زارها وقد تكلف هذا المشروع فيما يرويه صاحب كتاب ليبيا في العهد العثماني الثاني مبلغاً كبيراً (٣٥،٠٠٠) ليرة تركية . وعلى هذين الموردين ظل اعتماد سكان المدينة في الحصول على حاجتهم من مياه الشرب بقية العهد العثماني .

الوقت فلم تغادر الموانىء الإيطالية حتى يوم ٩ اكتوبر ، وهو اليوم الذي أعلن فيه نائب الأميرال فارافيلي استيلاءه على مدينـــة طرابلس باسم ملك إيطاليا وعين فيه بوريار يتشي حاكمـــاً عاماً لها . وقد أبرق ملك إيطاليا من نابولي ، في هذا اليوم نفسه ، ببرقية تهنئة إلى الحاكم الجديد ، يشيد فيها ببطولة هذا القائد الجريء ولا اريد أن اتساءل عن الدافع او الدوافع التي حملت قائد الأسطول الثاني على تأخـــير اعلان الاستيلاء على مدينة طرابلس حتى ذلك اليوم ، ولا عما يعنيه توجيه الملك الإيطالي لبرقيته إلى بوريار يتشي واطراؤه له بدلاً من توجيهها إلى قائد الأسطول الثاني الذي قام بالاحتلال فإن ذلك لا يعنينا الا من وجهة النظر القائلة باشتداد التنافس بين البحرية والجيش على إحراز قصب السبق في القيام بالاحتلال ، وهو تنافس بدت آثاره واضحة في عمليات الغزو الأولى ، وفي نقل القوات البرية ولا سيما ألايات المدفعية من قوات الحملة. ولا غرو في ان ينشأ هذا التنافس الحاد بين القوتين كنتيجة لقيام رجال البحرية بعملية احتلال طرابلس وطبرق معاً قبل سفر قوات الحملة البرية بأيام مما اكسب البحرية ورجالها في نظر الشعب الإيطالي فخر ومجد هـذا الاحتلال . ولم يترك للجيش عدا مهمة المحافظة على المناطق المستولى عليها وعدا التوسع فيها وهو عنء ومجهود يقوم به الجيش لتمجد به البحرية دونه . ولعله مما زاد تذمر قادة الجيش خطأ الاحتمال الذي سبقت الإشارة إليه، والقائم على الظن بأن الأهالي سوف يقفون موقف الحياد من الاحتلال الإيطالي لبلادهم . ولعله مما نماه ايضاً (إلى درجة التباغض ؟) تفويت

الفرصة على قـادة الجيش ورجاله الذين كانوا يحرصون اشد الحرص على تحقيق نصر سريـع باهر يمحو عار هزائم عدوه السابقة . ولعل هذا أيضاً كان بين الأسباب التي جعلت ملك إيطاليا يهتم شخصياً بأمر توديع الحملة في ميناء نابولي بعد أن تمت عمليات الغزو الأولى الأمر الذي يفقد زيارته وتوديعه رسمياً للحملة معناها العسكري .

الفصل الرابع

العدوان

توديع الحملة الرسمي في نابولي

في احتفال رسمي جرى يوم ٩ اكتوبر ١٩١١ بمدينة نابولي اعتلى ملك إيطاليا فكتور عمانويل الثالث متن الزورق البخاري White عند الساعة ١٢،٣٠ فطاف بالسفن المحملة بالجنود يحيي ويودع قوات الحملة ، وكانت البوارج والسفن خلال ذلك تحييه التحية الملكية التقليدية فتدوي أصوات مدافعها في الفضاء مختلطة بصفير البواخر وصيحات الجنود الذين على ظهرها . وقد أبدى الملك إعجابه الشديد وارتياحه للاستعدادات المتخذة لتجهيز قوات تلك الحملة وإبحارها لكل من وزير الحربية « سبينقاردي » وقائد الحملة الجنرال « كاراو كانيفا » .[1]

وهذه الزيارة الملكية لسفن الحملة قبيل إبحارها إنما تمت بدافع عاملي

---

١ – Gaetano Cicerone : – المصدر السابق ص ٢٠٩ – ٢١٠ .

سياسي عسكري معين سبقت الاشارة إليه في نهاية الفصل السابق ، ولا نرى لذلك ما يبرر التعرض لذكره من جديد .

وفي ذلك الاحتفال الرسمي قام رجال الدين من القساوسة والرهبان بمباركة سفن الحملة بينما كانت نواقيس الكنائس تدق والصلوات والابتهاجات تردد في داخلها ووزعت على جنود الحملة وقوادها الصلبان المهداة من قداسة البابا لهذا الخصوص[1] .

وهذا الطابع الديني الذي أسبغ على الحملة الايطالية منذ يوم إبحارها مرده إلى عاملين اثنين : الأول تاريخي والثاني عاطفي وجداني ؛ فقد كان للحروب الصليبية ، وما تطورت إليه في شمال افريقيا من صراع بحري بين الصليب والهلال ، أثرها الواضح في العقلية الإيطالية الدينية الى حد دفع بالكاردينال فانوتيلي الى القول: « اليوم تتم ايطاليا رسالتها التمدينية، لأنها ستقيم الصليب في طرابلس حيث خفق الهلال يوماً ما » . وهذا الطابع الديني للحملة نلمسه في عمليات المرحلة الأولى بوضوح : فقد أفرط الإيطاليون في الاحتفال بكل نصر تحققه قواتهم في كنائس بلادهم الاصلية ، وليس فقط بل وفي مدينة طرابلس ذاتها حيث قدموا صلاة الشكر لله على ما مكنهم منه من انتزاع الهلال لإعلاء الصليب مكانه[2] . كما كانت الابتهالات والدعوات ترتفع عقب الصلوات وخلالها في كل كنيسة من

---

١ ـ محمد فؤاد شكري : ـ السنوسية دين ودولة ص ١٣٤ ،

٢ ـ محمد فؤاد شكري : نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .

كنائس إيطاليا مستمدة العون الروحي لأولئك الذين يخوضون المعارك من أجل المسيحية ضد الاسلام ، كلما شعرت الجماهير بشدة وطأة المقاومة الوطنية على جيشهم الغازي المحارب .

وكان تمسك عامة الشعب الايطالي بالفكرة الدينية وتشبثه بها آنذاك شديداً فحال دون تأثر عامته بالعقائد المادية التي اجتاحت أوربا بأسرها . وهذا عامل يزيـــد من قوة رسوخه فيهم كون مقر البابا وعاصمة الكاثوليكيين الروحية في بلادهم (الفاتيكان) . وأذكاه كون هذه الحرب معلنةعلى خليفة المسلمين وزعيمهم الروحي الذي حارب اسلافه المسيحيين الصليبيين وطردوهم من شرق البحر الأبيض المتوسط . لقد جعلهم هذا الامر ينظرون إلى هذه الحرب على أنهـــا حرب مقدسة بين المسيحية والاسلام . ولعل دعاة هذه الحرب من الايطاليين الاستعماريين قـد استغلوا هذه الورقة الرابحة في صراعهم مع معارضي فكرة العدوان من الاشتراكيين الإيطاليين .

وقبل أن تغادر الحملة ميناء نابولي أصدر القائد العام لها ــ فيما تقول المصادر الايطالية ــ أمراً إلى جميع القوات ضمنه تعليماته بوجوب احترام الملكية ، والدين ، والعادات الوطنية للسكان . كما طالب فيه قواد جميـع الفرق بوجوب القضاء وفي قسوة وصرامة رادعة على أي تمرد أو عصيان أو خروج على هذه التعليمات [1] .

---

١ – Gaetano Cicerone المصدر ص ٢١٠ .

والغريب في الأمر أننا سنجد صدى لكل من الطابع الديني وهذه التعليمات في منشوره الأول إلى سكان طرابلس . غير أنه لا الأوامر التي صدرت عنه إلى الجند احترموها ولا الوعود التي قدمها هو نفسه إلى السكان في منشوره تمسك هو وقواد جيشه بها ؛ إذ لم يكد أول اصطدام حقيقي يقع بين جنوده والوطنيين والاتراك حتى نكل جنوده على مرأى ومسمع من ضباطهم وبأمر من قادتهم بالأبرياء من السكان الوادعين المسالمين المستسلمين لهم ولما يمض على الأمر ذاته خمسة عشر يوماً فقط .

ابحار الحملة إلى ليبيا

كانت الحملة الإيطالية من حيث العدد والعدة أكثر مما يستطيع الاسطول الإيطالي نقله مرة واحدة ، لذلك فقد تم نقل الحملة العسكرية على دفعات متتالية خلال المدة فيما بين ٩ وآخر شهر اكتوبر .

ولم يكن ميناء نابولي وحده هو الذي أبحرت منه جميع قوات الحملة فقد كانت سفن النقل والسفن الحربية تتخذ من الموانىء الصالحة والمحصنة مرافىء استخدم معظمها في هذه العمليات . ولكن قافلة نابولي كانت الأولى ، وقد أبحرت سفنها في نفس اليوم الذي أجريت فيه الاحتفالات (٩ اكتوبر) وكانت تتكون من عشرين سفينة نقل حشرت جميع فراغاتها بجنود فرق المشاة ومتاعهم وأسلحتهم ، وكانت تحرسها

سفن الاسطول الإيطالي .

ومن مضيق مسينا Messina أسرعت السفينتان أمريكا America وفيرونا Verona تحرسهما البارجة Varese فوصلتا صبـــاح يوم ١١ اكتوبر إلى ميناء طرابلس ؛ وبالرغم من البحر الهائج ـ فيما يقول مصدرنا الإيطالي ـ فقد تمكنتا من إنزال أول ألآيين إلى البر . وقـد سارع جنودهما باتخاذ أماكن بحارة سفن الاسطول الثاني وبحارة السفن المدرسية الذين كانوا يرابطون منذيوم الاحتلال في خطوط الدفاع عن المدينة .

ونلاحظ هنا أن الإسراع بهما وحمولتهما كان استجابة لما سبق أن أشرنا إليه من استنجاد القوات البحرية المحتلة بالجيش عقب معركة بومليانة الليلية . وما إن وصلت هذه الطليعة من قوات الحملة الايطالية الى طرابلس حتى سارع حـ كم مدينة طرابلس الى نشر بيان على الشعب زف اليه فيه بشرى وصولها مذكراً بأنها إنما « قدمت وستقدم الى هذه البلاد لـكي تجيركم وايانا وتكف عنكم وعنا عدوكم وعدونا [1] » .

ووصلت بقية السفن صباح يوم١٢ أكتوبر في حراسة السفن الحربية جاريبالدي ، وماركو بولو ، وفيروتشيو ، وسانت بون ، وايردي ،

---

١ ـ الطاهر الزاوي : جهاد الأبطال ص ٥٤ . ونلاحظ انه في عبارته هذه لا يخفي قلقه من هجمات الوطنيين (وهم الاعداء)ولا ابتهاجه بوصول طلائع الحملة التي ستجيره وتصد عنه تلك الهجمات التي لم ير بعد منها سوى هجوم بومليانة الليلي ، فياله من بطل !

وبارتينوبي ؛ ومن ست بوارج ومن خمســـة عشر طراداً . وكانت قاذفات الطوربيد تقوم بمهمة الحراسة الوقائية للقافلة البحرية من الشرق فيا بين كريت وجزر بلاد اليونان .

ولم تكن وجهةالقافلة الثانية طرابلس وإنما درنه وبنغازي لاحتلالهما. وكانت قافلـة السفن التي اتجهت إلى بنغازي ودرنه تتكـون من السفن والبوارج والطرادات التالية :

سفن النقل: البسفور Bosforo ، الملك فكتور Re Vittorio البو IL Bo'، طيبة Tebe ، بالدوينو Balduino ، برمانيا Birmania برسيو Perseo ، ليتيمبرو Letimbro ، وهي السفن التي أقلت جنود الحملة وكان يحرسها البوارج فكتور عمانويل Vittorio Amanuele وهي بارجة القيادة وقد اعتلاها الأميرال أوبري Aubry قائد البحرية العام ، والجنرال بريكولا Briccola [1] قائد الفرقة الثانية من قوات الغزو ، والماجور بونجوفاني Bongiovanni رئيس أركان حربه ؛ ثم البوارج : روما Roma ، الملكة إلينا Regina Elena ، نابولي Napoli ، أمالفي Amalfi ، ليقوريا Liguria ، بيومونتي Piemonte ، اريتروبا Erutria ؛ والطرادات : اللانشييري Lanciere ، اللامبو Lampo ، إيورو Euro ، أوسترو Ostro ، برساليري

---

١ – وقد خلد الايطاليون اسم هذا القائد باطلاقاسمه على الشارع الذي يصل ميدان البلدية بالبحر في اتجاه (شرق – غرب) وقـــد خلد الوطنيون اسم عمر المختار باطلاقه على ذات الشارع في عهد الاستقلال .

Bersagliere ، جراناتيري Granatiere ، أورسا Orsa ، أورفيو Orfeo ،
أوليمبيا Olimpia ، سبيقا Spiga ، سيريو Sirio ، ساجيتاريو Sagitario ،
سربينتي Serpente ، المجموع : ٢٩ قطعة بحرية منها ٢١ حربية . وقد
أبحرت يوم ١٣ اكتوبر من ميناء أوغستا Augusta فوصلت درنة يوم
١٦ اكتوبر وبنغازي يوم ١٨ اكتوبر [١] .

وقد كانت سفن النقل التي أنزلت الجنود الذين كانوا على ظهرها في
ميناء طرابلس قد عادت إلى إيطاليا لنقل بقية جنود الحملة فتكامل
معظم عدد المخصص منها لطرابلس في يوم ١٧ اكتوبر .

منشور كانيفا الاول

حينما يفتقد القائد العسكري في ماضيه وماضي أمته التجارب التي
يهتدي بها إلى كيفية التصرف في الخطوة التي يزمع الإقدام عليها ، إما أن
يرتجل خطة بذاتها لم يسبق إليها فيتصف في هذه الحالة بالنبوغ ، وإما أنه
يلجأ إلى التاريخ العام يستلهمه ويستهديه تخطيطاً أو تصرفاً بذاته ،
وهذه هي الصفة الغالبة في القادة الذين يفتقرون إلى صفة العبقرية . وكان
كانيفا ، قائد الحملة الإيطالي ، من هذا الطراز الثاني ، ذلك أننا نجده وقد
افتقر الى النبوغ وافتقد التجارب يلجأ الى محاكاة نابوليون بونابرت

١ ــ هذه القوات هي التي داهمت درنة وبنغازي واحتلتها وقد انقسمت الى قافلتين بعد
ان تركت وراءها جزيرة مالطة فيما ترويه بعض المصادر الايطالية .

ـ الذي أعلن اسلامه في مصر حينما جاءها محتلاً ليخدع المسلمين فيها ـ فيقدم على نشر البيان التالي في اللغة العربية وهو بيان يبدو فيه طابع المحاكاة والتقليد في تمام الوضوح ، وان لم يذهب القائد الإيطالي فيه إلى الحد الذي أقدم عليه نابوليون .

يستهل الجنرال كارلو كانيفا منشوره هذا الذي وزع على الناس يوم ١٢ اكتوبر هكذا :[1]

« بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على كافة الانبياء والمرسلين، صلى الله وسلم عليهم أجمعين .

« بأمر ملك إيطاليا المعظم فكتور عمانويل الثالث ، نصره الله ، وزاد مجده .

« أنا الجنرال كارلو كانيفا قائد الجيوش الإيطالية ، الموكل إليها إنهاء حكم الأتراك في طرابلس والقيروان[2] والمناطق التابعة لها ؛ إلى جميع السكان الذين لهم في المناطق المذكورة مقر ، من شاطىء البحر إلى آخر المناطق الداخلية ممن لهم مساكن في المدن أو مزارع وحقول ومراعي

---

١ – الطاهر الزاوي : جهاد الابطال ص ٥٠ ـ ٥١ ـ ٥٢ ، محمد فؤاد شكري : السنوسية دين ودولة ص ١٢٩ – ١٣٠ ، Gaetano Cicerone La terza Colonia Italiana Pag. 217 — 218.

٢ ـ هكذا في المصدرين العربيين وهو تعريب خاطىء لكلمة قورينيقيا أي برقة.

حول المدن ذاتها أو بعيداً في دواخل الإقليم [إلى هؤلاء جميعاً] أعلن :

« ان العساكر الخاضعة لأمري لم يرسلها جلالة ملك إيطاليا ، حماه الله ، لإضعاف واستعباد سكان طرابلس والقيروان [برقة] وفزان والبلاد الأخرى التابعة لها التي توجد الآن تحت سيادة الأتراك بل لتعيد إليهم حقوقهم وتقتص [لهم] من المعتدين عليهم ، سواء أ كان الأتراك أو أي شخص كان ، يريد استر قاقهم. وعليه فأنتم يا سكان طرابلس والقيروان وفزان والبلاد الأخرى التابعة لها من الآن سيحكمكم رؤساء منكم موكل إليهم أن يقضوا بينكم بالعدل والرأفة عملاً بقوله تعالى : « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » وستكون هذه الأحكام تحت حماية ورعاية ملك ايطاليا السامي حرسه الله .

« واعلموا أنه ستبقى الشرائع الدينية والمدنية محترمة ، ويحترم الأشخاص ، والممتلكات ، والنساء ، والحقوق وجميع الامتيازات المختصة بأماكن العبادة والبر ؛ لأن غاية أعمال الرؤساء يجب أن تكون واحدة وهي تحسين حالتكم ، والعمل على استتباب راحتكم ، ويجب أن يكون ذلك مطابقاً للشريعة الغراء والسنة المحمدية السمحاء . وسيقضى بينكم بالعدل طبقاً للشريعة وحسب أوامرها بواسطة قضاة قد اشتهروا بتفقههم في الشرع ذووا استقامة وسيرة حميدة كما أننا لا نغض الطرف عمن يظلم من الرؤساء ، ولا نغتفر غشاً أو خداعاً من أحد القضاة ، فالكتاب والقانون والسنة فقط تقضي وتحكم بينكم .

« واعلموا جيداً أنه لا يدعى أحد منكم للخدمة العسكرية بالرغم عن إرادته ، وإنما يقبل للدخول فيها أولئك الذين يرغبون في الانضمام إليها تحت اللواء الإيطالي باختيارهم ، لأجل حماية النفوس والأملاك ، ولكي يكفلوا للبلاد السلم والنجاح، وأما الآخرون فيبقون في بيوتهم ، عاكفين على العمل في حقولهم ورعاية المواشي أو معاطاة التجارة والصناعة والحرف الضرورية لقيام الحياة المدنية .

« وعلى هذا فكل امرىء يمكنه أن يقيم الصلاة في معبده حسب تعاليم دينه . ويلزمكم أن تتضرعوا إلى الله عز وجل أن يرفع مجد الشعب الإيطالي ومجد مليكه لأنه أخذكم تحت حمايته .

« والإيطاليون يرومون أن يكون اسمهم مهاباً من جميع أعدائكم ، وأما منكم فيكون محبوباً ومباركاً فقط .

« وبناء عايه ، وحسبما خولني جلالة ملك إيطاليا العادل المنصور ، وحكومته ، اعلنكم بما تقدم ، وسيجري مفعوله من هذا اليوم [؟] من شهر شوال سنة ١٣٢٩ ليبقى كأساس للعلاقات المستقبلة التي ستوجد بين الحماة والمحميين : بين الإيطالي وساكن هذه البلاد . وإني واثق بأنكم ستقبلون هذا المنشور بسرور زائد لأنه سيكون قانوناً تجب المحافظة عليه بأمانة واستقامة ضمير وشهامة من كلا الطرفين .

« واذا وجد من لا يخدم الشرائع ، أو لا يعتبر الأشخاص أو من

يمس حرمة النساء ، أو ينتهك حرمة الملك ، أو يقاوم أو يثور على إرادة العناية الإلهية التي أرسلت إيطاليا إلى البلاد ، وباسمها صدرت لي هذه الأوامر وقبلتها ممن يملك حق الأمر فسيكون الانتقام منه عظيماً ، وسأحافظ على تنفيذها بالقوة الموكلة لعهدتي بنبراس العدل والحق.

« فيا سكان طرابلس والقيروان والمناطق التابعة لها : اذكروا أن الله قد قال في كتابه العزيز : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » . وقد جاء أيضاً « وان جنحو للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

وجاء أيضاً : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها من عبادي الصالحون » . أي الذين يصلحون الأرض ويمنعون منها الفساد وينشرون فيها العدل والعمران . وجاء أيضاً : « وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم » أي إن تفسدوا في الأرض إن توليتم أمور الناس ويقاتل بعضكم بعضاً ، إن الذين يفعلون ذلك يلعنهم الله ويصمهم ويعمي أبصارهم ويستبدلهم بغيرهم . وجاء أيضاً : « قل اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير » . وجاء ايضاً : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » فإرادة الله ومشيئته سبحانه قضتا أن تحتل ايطاليا هذه البلاد ، لأنه لا يجري في ملكه إلا ما يريد ، فهو مالك الملك ، وهو على كل شيء قدير . فمن أراد أن يظهر في

الكون غــــير ما أظهره مالك الملك رب العالمين ، المنفرد بتصرفاته في ملكه الذي لا شريك له فيـــه ، فقـد جمـع الجهل بأنواعه وكان من الممترين .

« وبناء عليه ، يلزم على كل مؤمن أن يرضى ويسلم بما تعلقت بـــه الارادة الربانية وأبرزته القدرة الإلهية ، فالملك له سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء .

« فإيطاليا تريد السلام ، وتريد أن تبقى بلادكم إسلامية ، تحت حماية إيطاليا وملكها المعظم ، ويخفق فوقها العلم المثلث الألوان : أبيض وأحمر وأخضر إشارة الى المحبة والايمان وعشم الخير ! »

ولا اريد هنا أن أقدم على دراسة هذا المنشور فإن تقديمه في جملته يغني عن ذلك ، ولكنني سأشير الى نقط ثلاث حوله : الأولى الطابع الديني فيه ، وهو واضح بذاته . والثانية محاولة إظهار عدوانها بأنه قضاء وقدر ليس أمام المسلمين غير التسليم به والخنوع لسلطانها والا فإن الخروج عليها كفر وعصيان للارادة الربانية . والثالثة جهـــل إيطاليا وقائدها للدين الإسلامي وعدم تقديرها للدعوة السنوسية وما حققته بين السكان من وعي ديني وانعدام إدراكها لطبيعة ومدلول ما تستدل به من آيات القرآن والا فإن الآية التي استدل بها : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم...الخ » وحدها تكفي ليحمل المستسلم سلاحه ويهب لمقاومتهم وصدهم إذ أنها تستحثه لما يريدون خلافه . وقس على هذه بقية الآيات . وهذه النقاط

الثلاث إنما تدل وفي وضوح على سذاجة السياسة الايطالية وعلى عدم نضجها الى الحـــد الذي يمكنها من معرفة نفسية الشعوب ويقعدها بالتالي عن التحكم في مصائرها بغير قوة الغاب وشريعة القوة وهو ما لجأت اليه منذ الشهر الأول للاحتلال كما سيرد في موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله .

معركة بو مليانة

في صباح يوم ١٤ اكتوبر كرر الوطنيون محاولة الهجوم الذي سبق أن قاموا به ليلة ٩ـ١٠ من نفس الشهر على مناهل بو مليانة، وكانت غايتهم منه كما هي غايتهم من هذا الهجوم قطع المياه عن مدينة طرابلس . وبالرغم من ان الوطنيين في هجومهم هذا قد استخدموا المدفعية إلا انهم لم ينجحوا فيه ايضاً ، فقد كانت القوات الإيطالية تدرك خطورة العملية ، ولذلك ركزت دفاعها عنه واستماتت في القتال مما حمل الوطنيين على التخلي عن المحاولة .

ويقول مصدر إيطالي إن لهذه المعركة غاية ثانية هي تغطية قافلة من الأعداء (الوطنيين) كانت تقصد موانىء بن آدم وأن الوطنيـــين نجحوا في ذلك .

ونلاحظ في هذه المعركة التي يمكن اعتبارها نوعاً من تبادل اطلاق النار بين الجبهتين وحسب، أنها أول اصطدام بري بين الوطنيين والغزاة

تستخدم فيه المدفعية من قبل الوطنيين . وهذا يحملنا على التساؤل : هل كان مع الوطنيين أتراك في هذا الهجوم ؟ أم أن الوطنيين هم الذين استخدموها ؟ وللجواب على هـذا التساؤل لا بد من التعرض لموقف الأتراك من قضية الدفاع عن ليبيا منذ يوم الانسحاب من طرابلس والتخـلي عنها للإيطاليين إلى حـين أول معركة حقيقيـة في ذلك القطـاع .

موقف الاتراك والوطنيين من الغزاة

حينما انسحب نشأت بك بقواته الصغيرة من مدينة طرابلس قرر الاحتماء بالدواخل ، فانسحب بها أولاً إلى قرقارش الواقعة غرب مدينة طرابلس ، وفي اليوم التالي (٦ اكتوبر) وبعد أن تكامل عدد المنسحبين وتجمعت فلولهم واصلوا انسحابهم جنوباً إلى « عين زارة » ، ولما كانت مدافعهم من النوع القديم الثقيل فقد أرهق الجند سحبها فقررت قيادتهم التخلي عنها هنالك بينما واصلت الحاميـة المنسحبة تراجعهـا قاصدة « غريان » فوصلت « العزيزية » وهناك استقرت بعض الوقت .

وبينما يتحرز فؤاد شكري في « السنوسية دين ودولة » فلا يتحامل على الاتراك ولا ينعتهم بالخيانـة أو يلصقها بهم يندفع الطاهر الزاوي في « جهاد الأبطال » وراء عاطفته فيكيل التهم لنشأت بك ورفاقه وجنده (ص ٥٤ / ٥٥) فيقول : « ومن أغرب ما يتصور ان الترك كانوا غير

واثقين من إخلاص العرب كما ان العرب غير واثقين من اخلاص الترك ، وهذا دليل على فساد سياسة الترك وجهلهم بما يجب على الحاكم من تعرف ميول الناس والامتزاج بهم .

« ومن أسوإ ما وقع من تصرفات الترك أنه كان يوجد نحو خمسة آلاف جندي وطني فتآمر الترك على طردهم وحاولوا نزع سلاحهم . وقد تمكن كثير منهم من الهرب بسلاحه [1].

وبناء على ما عند نشأت بك (وهنا التحامل) من تعليمات سرية بعدم الحرب كتب هو ومن معه من ضباط الأتراك عرائض بتوقيعاتهم يطلبون فيها من الطرابلسيين الموافقة على عدم الحرب في طرابلس » . ثم يمضي في حديثه عن موقف الاتراك من الحرب وموقف الضباط العرب والوطنيين من هؤلاء ، ويحاول أن يرد ذلك الى عجرفة التركي وتعاليه على العنصر الوطني ، ثم ينتهي الى إقرار : « والحقيقة أنه (أي نشأت) لا يثق في العرب لأنه يجهل نواياهم وأنه يحاول أن ينفذ التعليمات السرية التي تلقاها من جمعية الاتحاد والترقي بعدم الحرب . ولكن الوفد (وكان من اعيان البلاد) أفهمه أنه لا بد من الجهاد ، واذا تردد الجيش في الاشتراك في الحرب فقد لا تحمد عاقبة هذا التردد » .

ولكن ما أخذناه على أنفسنا من التزام جانب الحياد في سرد الحوادث ودراستها والتعليق عليها يحتم علينا عدم الاندفاع وراء العاطفة وكيل

---

١ ـ أشك شخصياً في صحة هذه الواقعة لعدم اشارة أي مصدر آخر إليها .

التهم جزافاً لأولئك الذين حكمونا قروناً فعاقوا تقدمنا عن ركب الحضارة . ويلزمنا أن نحكم حين نحكم بعد دراسة وتمحيص دقيق للظروف والملابسات جميعها . وهذا هو ما سنفعله هنا وفي كل مكان .

الحقائق التاريخية التي أحطنا بها علماً هي أن الاترك انسحبوا من طرابلس بعد أن كانوا قد قرروا الدفاع عنهـا صوناً لأرواح الاهلين ومبانيهم وممتلكاتهم فقط (وهذه رواية الزاوي أيضاً) وأن الأيام الأولى (٥ ـ ١٦ اكتوبر) قد انقضت دون أن يشاركوا أو يقوموا بأية حركة لمقاومة الإيطاليين . اما ما عدا هذا فروايات يكتنفها الشك ونجد صعوبة في تصديقها . ثم :

كانت الخطة الأولى للإيطاليين حينما أقدموا على اعلان الحرب على تركيا تتلخص في عزل ليبيا عن تركيا والاتراك . وقد نجحوا في ذلك بقطعهم لخط التلغراف البحري الذي يصل طرابلس بالآستانة ، وبتدميرهم لمحطة التلغراف في درنه ، ثم بقطعهم للخط التلغرافي الذي يصل بين برقة والآستانة عن طريق مصر (عند طبرق) . و بشل حركة الاتصال البرقي نتيجة لموقف رجال مؤسسة ماركوني من الأتراك والخيانة التي أقدموا عليها ضدهم . ثم أخيراً بإحكام الاسطول الايطالي لحصار السواحل الليبيـة .

وكنتيجة لنجاح خطة العزل هذه لم يعرف قائد الحامية العسكرية ولا رجال الادارة في طرابلس بأمر الحرب التي أعلنت شيئاً حتى دوهموا

بعدوان الاسطول الإيطالي ورجاله لموانىء البلاد ومدنها فتصرفوا كضباط وجنود في البداية بما يمليه عليهم شرفهم العسكري فلم يسلموا في جزء من البلاد دون مقاومة . ولكن الحيرة والارتباك جعلت نشأت بك ورجاله لا يعرف ما ينبغي عليه أن يأتيه .

ولم تكن الآستانة ذاتها خلال الايام الاولى من الحرب ووقوع العدوان قد قررت هي الاخرى موقفاً صريحاً تجاه هذا العدوان المفاجىء؛ فالأمة (أتراك وعرب ومسلمون) بمجلسها النيابي (المبعوثان) تتهم الوزارة بالتهاون والإهمال ، والسلطان يستجدي رؤساء الدول وملوكها التوسط لحسم النزاع دونما تصادم مسلح ، والحكومة العثمانية تحت ضغط الرأي العام قد استقالت لتخلفها حكومة جديدة ليست في الواقع خيراً منها ثم إنها لم تكن قد حددت لنفسها موقفاً معيناً في القضية .

أمران يمكن من خلالهما إدراك حقيقة حرج موقف نشأت بك القائد التركي لحامية طرابلس ومصدر حيرته وتردده بين الإقدام على منازلة العدو ، والتريث حيناً من الزمن يتلقى خلاله الأوامر من الآستانة بطريقة ما .

وخلال فترة الانتظار هذه ، والتي نعتقد بأنها لم تمتد إلى أكثر من يوم ١٦ اكتوبر ، جرت اتصالات ذات شأن بين نشأت بك ، وكل من سليمان الباروني ، وفرحات الزاوي حول وجوب الدفاع عن أرض

الوطن مهما كانت النتائج .

وكان الشيخ سليمان الباروني [1] يقضي عطلة بين أهله وعشيرته في « فساطو » حينما وصلته الاخبار بالاعتداء الايطالي على طرابلس واحتلالهم لها ، وبانسحاب الحامية التركية إلى قرقارش، فسواني بن آدم ، فالعزيزية، في طريقها إلى غريان . فبادر بالاتصال بقائد الحامية ثم سارع على رأس خمسين شيخاً من شيوخ الجبل فبحث الموقف مع نشأت بك وقواده ، ووعد بإمداد الجند بالمتطوعين للقتال ، واستطاع أن يجمع حوالي الألف مقاتل اتجه بهم إلى المراكز الأمامية في عين زارة ، وشارك في الغارة على « قصر الهاني » في معركة « شارع الشط » التي سيرد ذكرها .

---

١ – كان الشيخ سليمان الباروني قد ولد بالجبل (فساطو) سنة ١٨٧٠ ، وتلقى علومه في تونس والجزائر ومصر ، وبينما كان في مصر التحق بجمعية سرية ثورية تعمل ضد السلطان عبد الحميد ، فوقفت السلطات على حقيقة أمره ، فحكم عليه بالاشغال الشاقة مدى الحياة . وبعد قليل صدر العفو عنه ، ولكن الجواسيس ظلوا يراقبونه فقبض عليـــه ثانية ، وحكم عليه بالسجن عامين على ان يبقى بعد ذلك سنة اخرى تحت المراقبـــة في مدينة طرابلس . ولما كان الباروني قد اكتسب شهرة طيبة بين مواطنيه، فقد تألف وفد من شيوخ طرابلس ذهبوا خصيصاً الى الآستانة لرجاء السلطان العثماني ان يصفح عنه ، فأطلق سراح الباروني على ان البوليس ظل يراقب حركاته ؛ وعندئذ قرر الباروني الرحلة الى مصر ، فأقام بها وأنشأ جريدة ثورية اطلق عليها اسم « الأسد » ؛ ولكنه لم يظهر من هذه الجريدة سوى ثلاثة اعداد فقط لأن السلطات أمرت بإيقافها (١٩٠٧) ومع هذا فإن الاستبداد الحميدي لم يطل فقد قامت الثورة واعلن الدستور العثماني (يوليه ١٩٠٨) فعاد سليمان الى وطنه وانتخب نائبـــاً عن الجبل في مجلس المبعوثان العثماني . (نقلا عن شكري في السنوسية دين ودولة ص ١٢٣) .

وكان فرحات الزاوي[1] هو الآخر يقضي إجازته ببلدته «الزاوية» حينما سمع بخبر العدوان الايطالي على طرابلس فسارع على رأس جماعات من المتطوعين من قبائل الزاوية، والعجيلات، والزوارية، الى مناصرة الأتراك فلحق بهم في العزيزية قبل مجيء الباروني بنجدته وبهذا كانا نواة الجند الوطني الذي قاوم الاحتلال الايطالي منذ معركة الهاني حتى اعلان الصلح بين الدولتين، ثم إلى أن انتهت حركة المقاومة الاولى في طرابلس سنة ١٩١٣ م .

وفي تلك الاثناء أخذت فكرت المقاومة تنتشر بسرعة. ويبدو أن نشأت بك تلقى أمراً بالاستمرار في المقاومة من الاستانة وعن طريق تونس[2] اذ أنـــه – فيما يقول الزاوي – قرر وضباطه الجهاد، وأرسل بهذا القرار «إلى عموم القبائل الطرابلسية في شرقي البلاد وغربها فقوبل من جميـع سكان القطر جميعاً بالسمع والطاعة، ونفر الناس خفافاً وثقالاً» .

بيد أن تدفق الوطنيين على معسكرات الأتراك اقتصر في الأيـام الأولى على سكان السواحل: زوارة، الزاوية، ورشفانه، النوايح الأربعة، ترهونه، زليتن، مصراتــه، غريان حتى إذا أعلن السنوسي

---

١ – فرحات بك من الزاوية تعلم في طرابلس وتونس ثم في باريس حيث درس القانون. ثم لما عاد الى وطنه ليبيا تقلب في عـــدد من الوظائف انتهت به الى ان يصبح قائمقام في فزان (الشاطيء) وبعد اعلان الدستور العثماني انتخب عضواً في مجلس المبعوثان عن مدينة طرابلس. (نقلا عن شكري : السنوسية دين ودولة ص ١٢٧) .

٢- راجع هامش (٢) من ص ٧١ من هذا الكتاب .

الجهاد ، ودعا إلى مقاومة المعتدين الغزاة، على ما سيأتي،تدفقت جموع : أولاد بوسيف ، ورفلة ، واولاد سليمان ، وأهالي فزان ، والتوارق وغيرهم من سكان الصحراء .

وفي اليوم السابع عشر من اكتوبر تلقت القيادة الايطالية من جواسيسها خبراً مفاده أن الأتراك والوطنيين يستعدون بقوات ضخمة للهجوم على مراكز قواتها التي اتخذتها حول مدينة طرابلس من القلعة الحميدية في الشرق إلى القلعة السلطانية في الغرب ، فأخذت بدورها تستعد لصد الهجوم، كما ألحت في نفس الوقت في طلب قوات المدفعية التي تأخر إبحارها حتى ذلك الحين اعتماداً على مدافع الاسطول الخفيفة التي أنزلت إلى البر .

معركة واحتلال درنه

بعد أن تم للغزاة احتلال بلدة طبرق (٤ اكتوبر) ومدينة طرابلس (٥ اكتوبر) أصبح ما بين هذين الموقعين المحتلين من الساحل الليبي مسافة تمتد إلى اكثر من ١٤٠٠ كيلو متر مما حتم على القيادة الايطالية محاولة تقصير المسافات بين المواقع المحتلة من ليبيا باحتـلال المناطق الملائمة الاخرى .

وتنفيذاً لهذه الخطة ـ فيما تقول المصادر الايطالية ـ اتجهت الفرقة الثانية لاحتلال مدينتي درنه وبنغـــازي فوصلت السفن المقلة للحملة

والقطع الحربية الحارسة لها أمام مدينة درنه صباح يوم ١٦ اكتوبر كما سبق القول .

وبعد أن طلب القائد الايطالي الاميرال برسبيتيرو Prespitero عبثاً من الحامية التركية تسليم المدينةدون قتال شرعت مدفعية الأسطول في قصف الاستحكامات المؤقتة التي أقامها الأتراك للدفاع عن المدينة حينما علموا باستيلاء الإيطاليين على طبرق ، وهكذا بدأت معركة درنة التي استمرت حتى منتصف الليل حينما انسحب رجال الحامية الأتراك من خنادقهم تاركين المدينة بعد أن أصبح الدفاع عنها مستحيلاً .

ولا نعلم بالدقة ما إذا كان السكان الوطنيون شاركوا في هذه المعركة الأولى من أجل الدفاع عن مدينتهم ، وإن كان المظنون أنهم فعلوا ذلك كما تشير عبارة سترد إلى ذلك .

وفي صباح يوم ١٧ أمر الأميرال قسما من بحارته بالنزول إلى البر للتأكد من انسحاب القوات التركية عن المدينة، ولم تنزل القواتالبحرية إلا في يوم ١٨ اكتوبر ، وقد كانت عملية الاستيلاء على المدينة شاقة للغاية : ذلك أن هيجان البحر قد سبب إغراق الزوارقالاولى بما تحمله من جنود البحارة ، كما اضطر السفن المقلة لهم الى الابتعاد عن الشاطىء حتى لا تصطدم بصخور الشاطىء . وليس هذا فقط فقد كانت مقاومة السكان لا تزال مستمرة وان كانت ضعيفة .

وفي يوم١٩ اكتوبر فقط أمكن إنزال نصف كتيبة من جند المشاة،أما

بقية جند الحملة فلم يتمكنوا من النزول الى البر الا في يوم ٢١ اكتوبر . أي أن الذي قام باحتلال المدينة هم جنود البحرية وحدهم كما في طبرق وطرابلس . وهذا ان دل على شيء فإنما يدل على قلة تدريب القوات البرية على عمليات الغزو البحري؛ ليس ذلك فحسب بل وعلى خوفهم من المخاطرة بركوب زوارق في بحر هائج بعض الشيء الامر الذي ألقى تبعة الاحتلال هنا كما سيلقيها مرة أخرى في بنغازي على عاتق رجـــال البحرية وحدهم .

وخلال عمليات اليوم الأول أصيب عدد كبير من مباني المدينة بأضرار جسيمة لأن المدفعية الايطالية كانت تقصد من وراء ذلك إرهاب السكان الوطنيين وحملهم على إيقاف حركة المقاومة التركية انقاذاً لأرواح أسرهم ومبانيهم ولكن شيئاً من هذا لم يحدث بالتأكيد بل فالمظنون هو العكس تماماً كما سبق أن قلت .

بنغازي في انتظار العدوان

أصبحت مدينة بنغازي ــ كما سبق أن ذكرت ــ معزولة عن العالم الخارجي اللهم إلا في الايام الاولى من حالة الحرب ولذلك فقد علم متصرف الولاية مراد فؤاد بك بواسطة الخط التلغرافي الذي ظل يصل بنغازي بالآستانة عن طريق مصر نبأ إعلان الحرب مساء اليوم الاول من اكتوبر وبعد إبحار الجالية الايطالية فيما يقول الصحافي الايطالي بوناتشي الذي

قدم لنا في كتابه « Gli Ultimi giorni di Bengasi Turcqi » صوراً حية لما كانت عليه مدينة بنغازي خلال الفترة فيما بين ٢٧ سبتمبر و ٢٢ اكتوبر سنة ١٩١١ م . بما في ذلك معركة الاحتلال . وفي نفس اليوم مساء وزع السلاح على المجندين من الأهلين من مخازن البركة « القصر » ودعي هؤلاء المجندون إلى التدرب على استخدامه تحت رعاية وبارشاد ضباط وجنود نظاميين من الاتراك منذ صبيحة يوم ٢ اكتوبر .

ويقول هذا الصحافي إن الاتراك اتبعوا خطة نفسية محكمة في إلهاب الحماسة ، وتهيئة المجندين المتطوعين وعامة السكان لخوض المعارك المرتقبة ، فأشاعوا مساء يوم ٤ اكتوبر أن ثلاث بوارج حربية وسفينة نقل عسكرية قد أغرقت في محاولة الاستيلاء على طرابلس ، ثم اشاعوا مرة أخرى بأن القوات التركية استولت على مستعمرة « مصوع Massua » بأرتريا (٧ اكتوبر) واشاعوا مرة ثالثة مع الاعتراف بضياع طرابلس وسقوطها في أيدي الإيطاليين أن عدد القتلى من الإيطاليين كان في معركة طرابلس حوالي الخمسمائة جندي ، وأن عـــدد الأسرى كان يزيد على الألفين وخمسمائة أسير . وأستطيع أن أقر روجان اشاعة احتلال مصوع فقد سمعت عنها شيئاً من أناس كانوا يروون واقعاً عاشوه . ولكنني لم أتمكن من الوصول إلى شيء حول الإشاعتين الأخريين اللتين رواهما هذا الصحافي لا في الروايات الشعبية ولا عند غيره من المصادر العربية والافرنجية التي وقفت عليها ؛ ولكن ليس معنى هذا كذبه في روايته لهما فمن المحتمل ضياعهما في زحمة الأحداث والحوادث الحربية التي توالت على ذكريات

الشعب طوال تلك السنين .

ويبدو أن المتصرف العثماني مراد فؤاد وقائد الحامية شاكر بك كانا على صلات ودية طيبة بأبناء القبائل القريبة فقد استجاب لندائه منهم الكثيرون ، ووفد على المدينة منهم في يوم ٨ و ١٠ اكتوبر جماعات قال عنهم الصحافي الايطالي إنه شاهدهم يدخلون المدينة ما بين راجل وفارس تتقدمهم الاعلام العثمانية . وقد سمعت من شيوخ هذه المدينه أن هذه النجدات قد عاد معظمها إلى منتجعاتهم مكرمين بعد أن استضافهم سراة المدينة أياماً وتأخر وصول الغزاة الايطاليين عما كان متوقعاً .

ويروي نفس المصدر الإيطالي خبر وصول مركب إغريقي محمل أسلحة مهربة إلى ميناء بنغازي مساء يوم ٥ اكتوبر ثم يشير إلى أن صائدي الإسفنج من الإغريق كانوا يزاولون مهنة تهريب الاسلحة الى برقة [١] رغم الحصار البحري المضروب على سواحل الولاية خلال تلك الأيام .

والذي يستشفه القارىء من كتابة هذا الصحفي عدا ما تقدم هو

---

١ ـ في الخامس والعشرين من شهر نوفمبر فيما يقول شيشيروني (ص ٢٧٣) صودر مركب رافع للعلم اليوناني فيما بين زوارة والزاوية من قبل الطراد Cassiopea وفي مياه بنغازي صادرت سفينة حربية ايطالية مركبين يرفعان العلم اليوناني وعلى ظهرهما مائتا صندوق كبيرة معبأة ببنادق Mauser وكثير من الذخيرة ومدفعان كروب Krupp جديدان وقد اقتيد المركبان المصادران إلى طبرق .

حالة القلق والتربص التي تحياها المدينة خلال تلك السبعة عشر يوماً من اكتوبر ، فقد كانت الاشاعات خلالها تتردد في سرعة اللهب ، وكانت الأعين مشرئبة لا تكاد تتحول إلا لتستقر على البحر تترقب رؤية دخان وسواري السفن الغازية . غير أن هذه السفن لم تظهر لهم في الأفق إلا مع شروق شمس يوم ١٨ اكتوبر .

وفي الليلة التي انبلج عنها هذا الصبح الرهيب عقد وجهاء وأعيان المدينة اجتماعاً عاماً تدارسوا فيه الوضع وأخطاره وموقفهم من الغزو الايطالي المرتقب، وبالرغم من أن أكثرية المجتمعين كانوا يحبذون إخلاء المدينة من السكان حقناً لدماء العجزة والنساء والاطفال إلا أن القرار الذي اتخذ كان عكس ذلك بالنظر لاستحالة التنفيذ الشامل ولعدم المساواة مع قصره على القادر عليه دون العجزة والفقراء من السكان . ويقول مصدرنا إنه كان لرئيس الطائفة اليهودية وتذلله أثر في اخذ هذا القرار الانتحاري الجريء .

وفي الساعة الثامنة ونصف بدت أعمدة الدخان عند الأفق فكان هذا نذيراً باقتراب العدو . توقف الجندون البنغازيون الذين كانوا حينذاك يتلقون تدريباتهم اليومية قرب مبنى الجمارك وعلى الرصيف، وتجمعت جموع الشعب على الساحل ترقب وصول الاعداء .

وعند الساعة التاسعة كانت قد بدت واضحة للعيان اثنتا عشرة سفينة من بينها أمكن تمييز أربع مدرعات ضخمة . وعند الساعة العاشرة كانت

قافلة الغزو قد تـكاملت فبلغ عددها حوالي الثلاثين سفينة . وفي الساعة العاشرة والنصف كانت السفن قد اتخذت مراكزها على شكل هلال يطوق المدينة بحيث يتوارى رأسه الأيسر ، بالنسبة لمن كان يراقبها من مدخل الميناء ، خلف رأس الفنار (يقع خلف مبنى السجن الحـــالي) ، ويمتد برأسه الأيمن إلى ما وراء رأس جليانه .

وفي الساعة الحادية عشرة قدم في قارب صغير رئيس أركان حرب القيادة الإيطالية القومندان Capomazza يرافقه ضابطان فصعد الى البر حيث قدم إنذار الاميرال الايطالي إلى المتصرف والى القائد العثماني للحامية بطلب تسليم المدينة دونما قتال أو مقاومة ، أمهلهم فيه حتى الثامنة من صباح الغـــد (١٩ اكتوبر) فإذا لم تستجب المدينة لذلك فستشرع القوات الإيطالية في عمليات الغزو والاستيلاء على المـدينة بالقوة .

وطلب الضباط الرسل مقابلة قناصل الدول الأجنبية، ولم يكن منهم بها عدا قنصل بريطانيـــا المستر فرانسز جونز Frances Jones وقنصل فرنسا المسيو ليكوتور Lecotour فأبلغا بذلك فاجتمعا بهم بعد أن اختليا مع بعضهما في دار القنصلية البريطانية مدة عشرين دقيقة . وقررا فيما بينهما اتخاذ موقف موحد من أمر حوادث العدوان . ويقول مصدرنا الايطالي إنه يبدو أن الرسل الايطاليين أبلغوهما أنه في حالة تصميم المدينة على المقاومة حتى بعد انقضاء فترة الانذار فإن القوات الايطالية

مصممة جدياً على الشروع في تنفيذ الخطة المرسومة للهجوم ، وعلى اخضاع المدينة بالقوة مع اختصار في الزمن إلى أقصر مدى ممكن ؛ وأنهم لذلك سيقصفون مباني المدينة الا ما كان منها رافعاً لعلم دولة محايدة ، ولكنهم سيحاولون ما أمكن أيضاً تجنب المباني القنصلية والكنائس والمساجد .

وكنتيجة لهذا اكتظت مباني القنصليتين برعايا الدولتين والمنتمين إليهما والمتمتعين بحمايتهما ، كما رفعت الأعلام على عدد من المباني الخاصة ببعض الجاليات الأجنبية في المدينة .

وبالرغم من أن مصادرنا لم تشر إلى موقف الاتراك من هذا الإنذار في صراحة إلا أن التدابير الدفاعية التي اتخذت لصد الغزو تدل دلالة قاطعة على أن الرفض كان مصيره . ذلك أنه منذ الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر [1] خرج الجنود محملين بالاكياس (الجوالات) الفارغة التي أخذوا في تعبئتها رملاً وأقاموا منها خط دفاع امتد فيما بين قصر الحكومة [2] ومبنى القنصلية الانجليزية في مواجهة الرصيف ، كما أقاموا

---

١ ـ هل يعنى هذا ان القائد العام للأتراك (شاكر بك) كان خلال الفترة ما بين الساعة الحادية عشرة والساعة ١٤،٣٠ قد عقد مجلساً عسكرياً حربياً درس فيه مع ضباطه الموقف الراهن ، وانتهوا إلى قرار بالدفاع عن المدينة ؟ وهل رسموا خطتهم الدفاعية فيه ؟ من الجائز أن يكون ذلك قد حدث بل من المحتمل جداً حدوثه .

٢ ـ لا وجود لهذا القصر الآن فقد دك معظمه قبل سنة ١٩٣٠ وفي مكانه الآن مسرح وسينما البرينتش وجانب من مبنى حكومة الولاية ، وكانت جدرانه الشمالية تطل على البحر حيث يمتد رصيف الميناء الخارجي الآن .

خطاً دفاعياً آخر من الحجارة يمتد من وراء القنصلية الانجليزية إلى اكوام الملح إلى الغرب منها في مواجهة الميناء ذاته . كما أقاموا خطوطاً دفاعية أخرى مماثلة في الجانب الشرقي من المدينة (خلف السجن وشرقه) وعند منطقة سيدي داود وعلى ضفاف المستنقعات الواقعـــة خلفه (منطقة المغلوقة البركه دار الكيش) .

وهذه الخطوط الدفاعية إنما هي لصد القوات البحرية الغازية حين محاولتها النزول إلى البر من أية جهـــة من تلك الجهات وليست لمقاومة مدفعية الاسطول ذاتها كما ظن الصحافي الايطالي بوناتشي . وقد استغرق الجند وبعض الوطنيين في إقامتها بقية ذلك اليوم . ولم يفرغوا منها إلا في ساعة متأخرة من الليل .

وفي المساء عقد أعيان ووجهاء المدينة ومن بقي من شيوخ القبائل التي قدمت إلى المدينة منذ أيام (٨ و ١٠ اكتوبر) اجتماعاً عاماً تناقشوا فيه حول ما يجب عليهم اتخاذه أزاء :

أ ـ الانذار الايطالي الذي سينتهي صبيحة الغد .

ب ـ الاتراك في حالي رفض الانذار والاستجابة له .

وبعد نقاش حاد وطويل حول مبدئي الدفاع والاستسلام وحول موقف الوطنيين من الأتراك انتهى المجتمعون وقد كان شاكر بك قائـد الحامية وبعض ضباطه من الحاضرين ، إلى اتخاذ قرار إجماعي بالدفاع عن المدينة وصد العدو عنها مهما كلفهم الامر من تضحيات وخسائر ، وقرار

آخر بالتعاون الكامل المطلق مع الأتراك وتسليم القيادة الحربية لهم لادارة المعركة . وانفض الاجتماع في ساعة متأخرة من الليل وانصرف الجميع إلى الأسلحة يتفقدونها ، ومن كان من الوطنيين محتاجاً الى الأسلحة أو الذخيرة زود بها من مخازن الجيش بقصر البركة بعد أن أمر شاكر بك بتوزيع بقية المخزون منه على الوطنيين .

ويبدو أن القيادة العثمانية كانت على علم أو هي تتوقع أو تدرك الخطة الايطالية ، فقد أقاموا خنادق وجدران واقية في عدد من المناطق الاستراتيجية إلى الغرب من رأس جليانة ، وفيما بينها وقصر البركة منذ فجر يوم ١٩ اكتوبر ولم يبق في المدينة من الرجال سوى القليل ، وقد اتخذوا مراكزهم وراء الخطوط الدفاعية المؤقتة التي أقيمت في اليوم السابق [1] .

وحانت الساعة الثامنة التي ضربها الايطاليون موعداً للاستسلام ولم ترتفع الاعلام البيضاء فوق أي مبنى (وهي الاشارة التي اتفق عليها لإبلاغ قرار المدينة وحاميتها بقبول مبدإ الاستسلام) ولا تلقى العدو أية اشارة أخرى تنبىء بذلك فاقدم على العدوان . وفي الساعة الثامنة والدقيقة الثالثة انطلقت أول قنبلة على المدينة من مدفعية الاسطول .

---

١ - يحدد بوناتشي(تقديراً) عدد من يرابط بخطي الدفاع : القصر - السفارة الانجليزية - اكوام الملح بحوالي الستين أو السبعين رجلاً فقط معظمهم من السكان الوطنيين (ص ١٠١ من كتابه المذكور سابقا) .

وبهذه بدأ العدوان الغاشم على سكان مدينة مسالمة أبت الاستسلام .

معركة جليانة

الدفاع عن الوطن عمل لا يقوم على أساس من تقدير الربح والخسارة في العمل فلا يهتم من أحس بأن الدفـــاع عن وطنه والجهاد في سبيله واجب عليه القيام به بنتيجة عمله الذي يأتيه طالما كان يشعر بأن وطنه في حاجة إليه ، والى تضحيته؛ فهو يقوم بالعمل،ويقدم على التضحية دونما تفكير فيما إذا كان النصر محتملاً بلوغه أو الهزيمة هي التي تنتظره ، فالوطنية عقيدة والدفاع عن الوطن واجب وتضحية . والعقيدة تصميم لا يعرف التردد ، وإيمان لا يحتمل الشك ويقين لا يصبر على الجدل ولا يثير ولا يقبل إثارة التساؤل ، والتضحية واجب يؤدى لا سلعة تخضع لمنطق الربح والخسارة .

ومتى انحرف الوطني بعقيدته الوطنية عن التصميم ، أصابه الضعف في إيمانه بالوطن فيعجز حينئذ عن التضحية في سبيله ، وينصرف إلى تقديرات فلسفية لمدى قوته وقوة العدو وقدرتـــه على احراز النصر وعجزه عن ذلك .

وقد كانت حامية بنغازي التركية ، وكان سكان بنغازي من العرب ، وكان أبناء القبائل الذين خفوا لنجدتهم في محنتهم من ذلك الفريق الذي أصبحت الوطنية فيه عقيدة راسخة ، والتضحية في سبيل الوطن واجباً

مقدساً حبيباً إلى النفس ، لذلك لم يفكروا حينما أقدموا على الوقوف في وجه القوات الايطالية الغازية لهذا الوطن الذي آمنوا به صواب أو خطأ المقاومة ، لا ولا التفتوا إلى خلو بلدتهم من الحصون والتحصين ، ولا إلى افتقارهم إلى المدفعية الثقيلة التي يردون بها على مدفعية ذلك الأسطول الضخم ، ولا إلى عددهم الذي لا يتجاوز الثلاثة آلاف بكثير في الوقت الذي تبلغ قوات العدو عشرة أضعاف عددهم أو تزيد . ولو أنهم فعلوا ذلك لما أقدموا على الدفاع ولما خاضوا معركة جليانة ، أول معركة حقيقية في سبيل الدفاع عن أرض الوطن التي استمرت عشرين سنة كاملة لم يتحقق فيها التوازن بين القوتين المتقابلتين ولا ساعة واحدة .

وقد بدأت هـــذه المعركة ـ التي عرفت بمعركة جليانة [1] أو بيوم جليانه [2] ، وكانت أول معركة كبرى بين الغزاة وأهل الوطن خبر فيها كل من الفريقين قوة خصمه ـ عند الساعة الثامنة والدقيقة الثالثة كما سبق القول ، وذلك حينما أطلقت إحدى السفن الحربية (مدمرة ؟) وكانت راسية إلى الشمال الغربي من مدخل الميناء قنبلتها الأولى على

---

١ ـ سميت المنطقة بهذا الاسم فيما يقول بوناتشي نقلاً عن قنصل بريطانيا في بنغازي المستر فرانسز جونز لأن ابنة احـــد القناصل الانجليز في هـــذه البلاد ماتت شابة ودفنت هناك واشتهرت المنطقة باسمها Giuliana . وعنه شاع هـذا التعليل في غيره من المصادر . ولكننا لا نركن إليه ولا نرتاح كثيراً له لأمرين : اولهما ان راويهـــا قنصل انجليزي له غاية من ورائها ، وثانيهما ان الرواية لم تدو نالا حينما اصبح لهذا المكان شهرته التاريخية مما يخدم الغاية الأولى .

٢ ـ تعود اهل برقة وربما اهـل طرابلس ايضا ان يسموا معاركهم باسم يوم كذا بدلاً من معركة كذا وهذا الاسلوب في تسمية المعارك بالأيام عادة عربية قديمة .

الساحل عند الفنار ، فأثارت القنبلة عموداً من الأتربة والغبار ، فقد تتابعت على إثرها الطلقات من بقية سفن الأسطول في نفس المنطقة ولمدة سبع عشرة دقيقة قبل أن تتوقف . وكان هذا القصف الشديد المتكاثف تضليلاً قصد منه الإيحاء الكاذب بأن الغزاة يزمعون إنزال جنـــودهم في تلك المنطقة ؛ ولكن الخدعة كانت مفضوحة ، ذلك أن الطرادات الخفيفة أخذت تجرجر على مرأى من اهل البلدة جميعهم القوارب المحملة بالجنود إلى منطقة اخرى غير تلك ، إلى جليانة ، حيث نزلت الفرق الأولى حوالي الثامنة والنصف خلف كثبان الرمل الساحلية التي حمتهم من رصاص بنادق المدافعين ، ومكنتهم من إنزال قواتهم في هدوء .

ولكن ما إن حاولت هذه القوات التي اتخذت مواقعها على امتداد الشاطىءالتقدم حتى بـدأت القوات العربية التركية تمطرها برصاص بنادقها الذي انهمر كالمطر يحصد الغزاة حصداً ، وكانت المواقع التي تحصن فيها المدافعون يصعب على مدفعية الأسطول إصابتها ، ولكن كثبان الرمال التي تمتد على الشاطىء[1] حمت القوات الإيطـالية من رصاص الليبيين والاتراك ومكنتهم بالتالي من التكاثر ومن انزال بعض المدافع التي شاركت في المعركة وكان لهـا أثرها الواضح في مساعدة الإيطاليين

---

١ – كان من المستحيل على المدافعـــين مهاجمتها او الاستيلاء عليها الا بالانكشاف لمدفعية الاسطول وهو ما لا قبل لهم بمواجهته وليس لديهم من الاسلحة الثقيلة ما يمكنهم من الرد عليها.

على مواصلة انزال القوات الغـــازية في مأمن من رصاص القوات المدافعة .

وفي الساعة العاشرة وقد كانت مدفعية الغزاة حاولت التقدم في اتجاه المقبرة المسيحية فأصبحت هدفاً مباشراً لرصاص بنادق المدافعين الذين تمكنوا من نصب كمين لها وإمطارها من الخلف ومن الجانبين بنار حامية أجبرت رجالها وحماتها من المشاة على التخلي عنها بالانسحاب رغم ما بذلته مدفعية الأسطول من جهود لمساندتهم في المعركة ، ولم يستردوا هذه المدفع إلا بعد أن ازداد عددهم وبعد أن دخلت في المعركة بطاريات جديدة تم إنزالها .ولكن هذه المدافع لم تعد صالحة لما أصاب آلاتها من عطب نتيجة تعرضها لرصاص البنادق التركية الوطنية .

وفي الساعة الثانية عشرة كان على الأرض ما يزيد على ثمانية آلاف جندي وبحار وعدد كبير من مدفعية الميدان والمدفعية البحرية الخفيفة. وبالرغم من ذلك فقد كان الغزاة أبعد ما يكونون عن النصر في المعركة .ولعل النصر الذي حققوه كان هو تمكن مدفعية الأسطول المتوسطة المدى من منع الإمدادات والذخيرة عن خطوط الدفاع الأمامية بتركيز قنابلها وفرض نطاق فاصل يحجز مقدمة الدفاع عن مؤخرته الأمر الذي أضعف من موقف المدافعين في النهاية .

وفي خلال ذلك اليوم حاول الغزاة القيام بحركة تطويق من طريق إنزال قوات أخرى وسط المدينة فدخلت قوارب بحارية محملة

بالجنود منطقة الميناء تحميها مدفعية الطراد أورسا Orsa غير أن المدافعين خلف التحصينات المؤقتة على امتداد قصر الحكومة ـ القنصلية ـ اكوام الملح ، امطروها بوابل من رصاص بنادقهم مما أجبرهم على التراجـــع إلى عرض البحر وكان ذلك حوالي العاشرة والنصف ثم عاد إلى المحاولة مرة أخرى حوالي الثانية عشرة دون ان يصحبها نجاح ، وبمحاولة ثالثة بعـد الساعة الثالثة دون نتيجة . ولا يستبعد ان يكون العدو قد حاول ذلك في منطقة اخرى بنفس النتيجة ، الأمر الذي حصر المعركة ولطيلة اليوم في المنطقة الممتدة بين رأس جليانة ورأس بو شيبة (قبل قريرنس) .

وبعد ساعات سبع متواصلة من النيران (٨،٣٠ ١٥،٣٠) كان الغزاة في موقف لا يحسدون عليه ، رغم تفوقهم العددي وجــــودة ووفرة أسلحتهم وفي نفس المواقع الساحلية التي احتلوها قبل الساعة العاشرة صباحاً .

ولكن الموقف تغير بعد ذلك نتيجة عجز بقيـة قوات المدافعين عن اختراق نطاق النيران المدفعية التي تمتد على طول الجبهة فاصلة بين هؤلاء وخطوط الدفاع الأمامية ، وكنتيجة لنفاد ذخيرة قوات الدفاع التي تخوض المعركة وتناقص عددهم باستمرار. ففي الساعة ١٦ قام الكولونيل موكاقاتا Giuseppe Moccagatta [١] على رأس فرقته باختراق صفوف الدفاع

---

١ ـ ولد بمقاطعة بيمونت بايطاليا سنة ١٨٥٤ ، واشترك في حروب الحبشة حيث برزت =

في معركة سافرة استخدم فيها السلاح الأبيض وذلك حينما حاول اجتياز المعبر الوحيد الممكن بين المستنقع والبحيرة (منطقة طابلينو) وفي الساعة ١٧ دخلت قوات الغزاة البركة واحتلتها كما احتلت مع غروب الشمس قصر البركة وبهذا انتهت هذه المعركة .

وبمراجعة ما تقدم ندرك أن معركة جليانة كانت أول معركة حربية بالمعنى الصحيح يخوضها الغزاة في ليبيا ضد أهلها ويبدو لهم فيها تصميم الوطنيين على الدفاع عن ليبيا والوقوف ضدهم في صف الأتراك ، وهي حقيقة كانت تزداد مع الأيام تأكداً . وفي هذه المعركة خبر كل من الفريقين خصمه وعجم قوته وتصميمه، وهي معركة إذا نظرنا إلى القوى المادية لدى الفريقين هالنا الفرق الشاسع بينهما ففي الوقت الذي كانت فيه القوات يبلغ عدد أفرادها اكثر من العشرة آلاف جندي وبحار لم يتجاوز عدد القوات المدافعة الألفين والخمسمائة ، وبينما كانت مدفعية الجيش والأسطول تعد بالعشرات على البر وتتجاوز المائة مدفع بكثير على السفن ، وهي جميعها قد شاركت في المعركة ، لا نجد لدى الأتراك كما يؤكد مصدر إيطالي سوى ست مدافع فقط ولم يستخدم منها في المعركة سوى أربعة فقط كانت موزعة في الميدان على الشكل التالي : مدفع واحد قرب المقبرة المسيحية (دار الكيش) ، ومدفعان على جانبي

ـــ مؤهلات القيادة فيه وإليه نسبت قصر البركة العثماني فيما بعد ، ولا يزال هذا القصر يعرف بين العامة بحكم العادة بهذا الاسم رغم العودة إلى الاسم القديم « قصر البركة » .

القصر الحكومي بالبركة ومدفع واحد في الناحية الجنوبية الغربية من منطقة سيدي حسين (المغلوقة) أما المدفعان اللذان لم يشاركا في المعركة فقد وضعا خلف القصر لمواجهة أي حركة التفاف تقوم بها القوات الغازية من النويهات .

واستمرار هذه المعركة يوماً كاملاً إنما يسجل نصراً حقيقياً للأتراك والوطنيين على الإيطاليين بالرغم من النتائج التي أسفرت المعركة عنها إذ ليس من السهل مع كل هذا التفاوت في القوى الصمود للعدو من الساعة الثامنة صباحاً حتى الثامنة مساء في معركة سافرة وعلى أرض مكشوفة تقريباً وتشترك فيها ٢١ قطعة حربية ما بين بارجة ومدمرة وطراد .

معركة سيدي حسين

وهي امتداد لمعركة الدفاع عن المدينة والتي بدأت مع الصباح في جليانة، وذلك أن المعركة لم تنته باحتلال الغزاة القصر البركة ومنطقتها فقد تحول المدافعون إلى سيدي حسين واتخذوا مراكز دفاعية جديدة واستمروا في مقاومة العدو وصد هجماته للزحف على المدينة ولكن مقاومتهم كانت تضعف مع مرور الساعات فإن لطاقة البشر حدوداً ليس من الممكن تخطيها فالجهود المتواصل في الحرب منذ الصباح وصيامهم عن الأكل طيلة اليوم وتناقص عددهم باستمرار ونفاد الذخيرة

منهم، وانوار الأسطول الكاشفة ، والصواريخ المضيئة جميعها عوامل يجب تقديرها عند الحكم على موقف المدافعين عن المدينة من المواطنين والاتراك .

ولكن الايطاليين فقدوا السيطرة على أعصابهم فاقدموا في جنون عند منتصف الليل على خطوة إجرامية لا تليق بالجيوش النظامية ولا تقرها شرائع الحرب الدولية ، فقد بدأوا يقصفون بجميع ما لدى اسطولهم وجيشهم من مدافع مباني المدينة ذاتها وغايتهم القضاء عليها بتدميرها على من فيها من السكان ، ولم يراعوا ما سبق أن التزموا به من احترام المباني القنصلية والدينية فكان أن دك جانب من صومعة الجامع الكبير وركن من القنصلية البريطانية وعدد كبير من المباني التي ترفع الاعلام المحايدة .

وإزاء هذا الاجرام الوحشي لم يسع القوات المقاتلة الوطنية انقاذاً لأرواح الأطفال والنساء ولشيوخ إلا التخلي عن فكرة الاستمرار في المقاومة والانسحاب تحت جنح الظلام إلى جنوب وشرق المدينة ، وبهذا انتهت المعركة التي كانت استمراراً للأولى وبعد أن استمرتا معاً طوال ست عشرة ساعة متواصلة لم تتخللها أية هدنة أو راحة .

وقد استشهد في المعركتين معاً عدد غير محدود من الوطنيين والاتراك قالت عنه المصادر الإيطالية بأنه حوالي ٢٠٠ ، وقالت عنه المصادر العربية بأنه حوالي ٧٠ شهيداً . كما قتل فيها من العدو عدد لم

تتفق عليه المصادر العربية مع المصادر الإيطالية فقد حددته الأولى بـ ٣٠٠ قتيل وحددته الثانية بـ ٢٢ قتيلاً فقط .

وتصمت المصادر الإيطالية عن عدد الضحايا في هذا العدوان من المدنيين ، ولكن مصدراً عربياً واحداً [١] أشار إليه فقال بأنهم حوالي الأربعمائة قتيل . ونحن وان كنا نميل إلى عدم الأخذ بهذه الرواية التي تتسم بطابع التهويل إلا أننا نجزم بأن عدد الضحايا من السكان كان مع ذلك غير قليل .

احتلال بنغازي

توقفت المعركة بعيد منتصف ليلة ١٩ـ ٢٠ اكتوبر نتيجة لاستسلام المدينة وانسحاب الحامية ، ولكن جند الغزاة كان لا يزال في مواقع إلى الجنوب من محلة سيدي حسين فقد أحجم قادته عن المخاطرة بالزحف للاستيلاء على المدينة ذاتها .

وفي الساعة السابعة والنصف من صباح يوم ٢٠ اكتوبر نزل إلى البر القبطان كابوماتسا رئيس أركان حرب الاميرال أوبري وبصحبته بعض البحارة ، وبعد زيارة القنصل البريطاني دعاه لحضور رفع العلم الإيطالي

---

١ ـ الامير شكيب ارسلان في تعليقاته على «حاضر العالم الاسلامي» ص ١٨٨ - ١١٩ من الجزء الثاني .

على مبنى الجمارك وعلى قصر الحكومة كما دعا القنصل الفرنسي كذلك .

وكان بعض أفراد الأمن (الظابطية) قد بقوا بالمدينة لحراسة المباني الحكومية والقنصلية في المدينة فلما حيا القبطان وبحارته العلم الإيطالي سلم هؤلاء الجنود الأتراك بنادقهم إلى الضابط التركي المسئول وانخرط بعضهم – فيما تروي المصادر الايطالية – يبكي في نشيج ونحيب ، وهو موقف عبر ولا شك عن مدى الغل والحقد الذي يكنه أولئك الجنود البواسل للعلم المرفوع وكراهيتهم للموقف المهين الذي تفرضه عليهم التقاليد العسكرية .

ودعا القبطان الإيطالي بعد ذلك عميد البلدية وأعيان البلدة لمقابلة الأميرال أوبري على ظهر المدمرة بارجة القيادة فكتور مانويل والتفاوض معه في أمر التسليم ، فلبوا مرغمين فالقى فيهم الأميرال أوبري كلمة نوه فيها بمقاصد إيطاليا السلمية وغاياتها النبيلة على غرار ما ورد في منشور كانيفا ، وطالبه أعيان البلدة بأمر جنوده بالمحافظة على أعراض نساء المدينة وأموال سكانها وباحترام أماكن العبادة من مساجد وكنائس فوعد بذلك .

وبعد ذلك نزل فريق من الكارابينيري Carabinieri وسط مجموعة من أهالي المدينة الذين تجمعوا عند الرصيف يدفعهم القلق على أعيان بلادهم أو الفضول لرؤية هؤلاء الذين غزوهم في عقر دارهم.وأخاف

الكارابينيري نظرات هؤلاء واحتشادهم زمرة فاخذوا يطلقون في الهواء رصاصات بنادقهم بقصد الإرهـــاب، على عادة البوليس في تفريق المظاهرات .

وبالرغم من كل هذا فإن جند الغزاة لم يدخلوا البلدة وإنما شرعوا منذ الساعة التاسعة من صباح هذا اليوم في عملية تطويق للمدينة المستسلمة لم ينتهوا منـه الا عشية ذلك اليوم عنـد مبنى السجن حيث عسكروا ليدخلوها في اليوم التالي ٢٢ اكتوبر .

وهكذا وبعد أن طوقت المدينة وهي مستسلمة، وبعد أن أكد أعيان المدينة مرغمين هذا الاستسلام، وبعد أن دخلها الجند في اليوم التالي وجد القائد الإيطالي الجنرال بريكولا الشجاعة ليدخل المدينة وسط حراسه وحماته ليعلن الاستيلاء على المدينة باسم ملك ايطاليا وليتخذ مقر قيادته بمبنى القنصلية السابقة للإيطاليين في بنغازي .

وفي نفس اليوم بدأ تجريد أهالي المدينة من السلاح عن طريق إعلان عام حددت فيه العقوبة بالاعدام الفوري ثم بتفتيش جميع المساكن تقريباً، وكانت هذه هي أول عملية سلمية لإيطاليا في البلاد . واذا نحن علمنا مدى حرص العربي على سلاحه أدركنا الأثر السيىء الذي تركه هذا العمل في النفوس خاصة وأن عقوبة الاعدام قد نفذت بالفعل في أكثر من واحد من السكان المسالمين .

احتلال بلدة الخمس

أجد اختلافاً كبيراً بين المصادر فيما يتعلق باحتلال مدينة الخمس والمعارك التي دارت بها ثم حولها. ومعظم هذه المصادر تجمع سواء أ كانت إيطالية أم عربية على أن الإيطاليين لم يدهموا البلدة إلا يوم ٢٠ اكتوبر اللهم إلا كتاب إيطالي واحد[١] ميزته أنه أقرب جميع المصادر عهداً بتلك الأحداث فهو يقول بأن الإيطاليين قد داهموها صباح يوم ١٧ اكتوبر ، وأنهم لم يدخلوها إلا يوم ٢١ أ كتوبر ، والا مصدراً عربياً واحداً يعد من الوثائق التاريخية الهامة[٢] اتفق مع المصدر الإيطالي في فترة القتال (أربعة أيام) واختلف معه في التاريخ (بدأ بها يوم ٢٠ بدلاً من ١٨) ولما كان الإجماع على أن احتلال الإيطاليين للخمس تم يوم ٢١ اكتوبر فإننا نعتمد فيما يلي على الرواية الإيطالية محتملين الخطأ في تحديد بدء العدوان على هذه البلدة لدى المصدر العربي :

غادرت طرابلس يوم ١٦ اكتوبر حملة عسكرية من جنود البرساليبري « بوريشة » على ظهر سفن حربية وغايتها احتلال بلدة

---

١ — Gaetano Cicerone :- La 3 a Colonia italiana Roma 1913

٢ — محمد فؤاد شكري: - ميلاد دولة ليبيا الحديثة، وثائق تحريرها واستقلالها الجزء الأول - المجلد الثاني .

الخمس الواقعة غربي طرابلس فداهمتها ظهر يوم ١٧ ، وبعـــد أن رفض طلب التسليم دون قتال كما حـــدث في بقية المناطق المحتلة بدأت المدفعية في قصف المدينة فدك قصر المرقب ، وهو ثكنة عسكرية تقع على ربوة تطل على المدينة كما دك مبنى المتصرفية وعدد من المنازل في المدينة ، وفي يوم ١٨ حاول الغزاة النزول إلى البر والتحموا في معركة حامية مع الوطنيين (كانوا حوالي ١٠٠ جندي تركي و ١٠٠٠ مجاهـــد عربي) انتهت بانسحابهم ولجوئهم إلى السفن من جديد .

ولا يذكر المصدر الإيطالي قتلى الغزاة ولكنه يقول إن عدد الشهداء حوالي ٢٠٠ من الأتراك والوطنيين في ذلك اليوم .

وهذا الانسحاب هو أول هزيمـة فعلية تلحق بالجيش الإيطالي في عمليات الغزو التي قام بها على الساحل الليبي إذ كان يتفوق بعدده وعدته واسطوله في كل معركة يدخلها مع الوطنيين (في طبرق وطرابلس ودرنه وبنغازي) ويتمكن من تثبيت قدمـــه على اليابسة منذ اليوم الأول للهجوم .

وفي يومي ١٩ و ٢٠ استمرت المدفعية الايطالية في قصف البلدة بقنابل الأسطول دونما رحمـة أو شفقة ولكن المدافعين عنها من عرب وأتراك لم يتخلوا عن المقاومة حتى مساء يوم ٢٠ ثم انسحبوا تحت جنح الظلام إلى الجنوب تاركين البلدة للغزاة الذين احتلوها قبل ظهر يوم ٢١ اكتوبر وبهذا ينتهي الفصل الأول من العدوان الايطالي الغاشم على ليبيا باستيلاء قواتهم على هذه المناطق الخمس من الأراضي الليبية .

والذي نلمسه في هذا الدور من الصراع هو أن الحاميات التركية جميعها يؤازرها السكان الوطنيون لم تسلم في اية منطقة من المناطق المستولى عليها على الرغم من قلة اعدادها وعدم توفر الأسلحة لديها فقاومت ما أمكنها أن تقاوم ثم انسحبت من الميدان انسحاباً شريفاً مشرفاً في نفس الوقت بعد أن ألحقت بالقوات الغازية خسائر فادحة في العتاد وفي الأرواح في كل معركة خاضتها معه .

كما نلمس أن معركة بنغازي (جليانة ـ سيدي حسين) كانت أشد المعارك على العدو حتى أنه لشدتها عليه لم يثق في قواته ولم يرتح إلى تفوقه فاستنجد بطرابلس التي سارعت بإيفاد نجدة عسكرية وصلت بنغازي يوم ٢٢ اكتوبر ونزلت إليها صباح اليوم التالي . وأن معركة الخمس كانت من العنف والقوة بحيث أجبرته على الانسحاب واللجوء إلى متن السفن الحربية ، وقد برز في هاتين المعركتين العنصر الوطني بشكل لا يحتمل الشك في موقفه من الأتراك . ولا أقصد بهذا أن العنصر الوطني لم يشارك في الدفاع عن الوطن في المناطق الأخرى ولكنني أشير بهذا فقط إلى غموض مصادرنا في هذه النقطة بالذات وعدم صراحتها فيها .

ومهما يكن من أمر فإن هذه المقاومة الأولى أقنعت القيادة الإيطالية بعدم كفاية قوات الحملة الأولى فسعت لتعزيزها بتجريدة ثانية وثالثة رفعتا العدد الإجمالي كما سبق أن ذكرت إلى أكثر من مائة ألف جندي. ولو أن إيطاليا كانت دولة لم تسعر بداء الاستعمار إلى حد بعيد كما هي الحال بالنسبة إلى إيطاليا آنذاك ، ولو لم يكن قادة وساسة هذه الدولة

واقعين تحت تأثير مركب نقص « عـدم الكفاءة » الناشىء عن هزائم عدوة Adua وبنادير Benadir ، ولو أن في السياسة الإيطالية مرونة كافية ولدى الساسة تقديراً حقيقياً للموقف الذي زجوا بدولتهم فيه لما أصرت إيطاليا على مواصلة الصراع ولتلمست طريقاً للتراجع عن طريق قبول مبدأ المفاوضات الذي كانت تركيا تسعى جاهدة له مكتفية بنوع من الحكم المشترك، أو حتى بشكل غير مباشر من أشكال السيادة .ولو فعلت لجنبت نفسها مؤونة التورط في حرب ضروس دامت عشرين سنة كاملة استنزفت خيرة ابنائها وجل مالها .ولكنها لم تفعل ولم تتراجع لأنها خدعت بالنصر الذي حققته باستيلائها على المناطق الخمس من ليبيا دون أن تراجع نفسها وتحدد موقفها وموقف العنصر الوطني من محاولتها فكان ما كان مما سجله التاريخ .

الفصل الخامس

صدى العدوان الإيطالي

صدى العدوان في العالم العربي الاسلامي

« العالم العربي وحدة متماسكة لا تقبل الانقسام » !

هذا ما يقرره دعاة القومية العربية في عصرنا هذا . و « العالم الإسلامي أمة واحدة » هذا ما يؤكده وينادي به ويعمل من أجله دعاة الفكرة الإسلامية . وهؤلاء وهؤلاء صادقون ، وهم جميعاً على حق فيما به ينادون . وان كان هؤلاء وهؤلاء لا يشعرون ، او أنهم يشعرون ويغالطون ، ولهذا او لذلك يختلفون من اجل شعارات وآراء لا تنطبق على الواقع الحي الذي تحياه الأمة العربية ، والأمم الإسلامية . فاذا نحن سلمنا بأن عز الإسلام من عز العرب ، وبانه متى عز العرب فقد عز الإسلام ؛ ذلك ان العروبة هي الدم المتدفق في عرق كل عربي ، والإسلام هو العقيدة التي تمد هذا الدم بالطاقة الخلاقة الدافعة فيندفع

حاراً قوياً في شرايين العرب والمسلمين ، يدفع العرب من أجل الاسلام الذي هم الركن الأساسي فيه ويدفع بالمسلمين للعمل من أجل أولئك الذين نزل فيهم قرآنه وبلغتهم نزل ، وبسواعد أبنائهم انتشر وقوي ورسخ ؛ فالإسلام للعروبة نهج ، والعروبة للاسلام دعامة وسند لا ينفصلان ، وإن هما فصلا عن بعضهما جوفت القومية وطمس الاسلام .

هذا هو المفهوم العام السائد اليوم لدى العرب على الرغم من تباين الشعارات ومن محاولات الفصل بين الفكرتين المنسجمتين المتلازمتين منذ ان وجد وانتشر الاسلام . وهذا هو ذاته المفهوم الذي كان سائداً بالأمس يوم لم تكن ثمة شعارات . فموقف العرب اليوم كعرب من قضايا الاسلام وموقف المسلمين كمسلمين من قضايا العروبة والاسلام (شعبياً) هو ذاته موقف العرب والمسلمين بالأمس حتى وان كانت الاتجاهات السياسية المحلية والدولية تقفان بالأمس كما تقفان اليوم في وجه هذا الاتجاه لتصداه وتحاولا التحول به عن العروبة المسلمة والاسلام العربي . وبالرغم من أن السياسة قد تنجح في أوقات الهدوء والسكينة المعبر عنها بفترات الركود فإن الأزمات وعهود التوتر تعيدان الفكرة إلى الوجود القوي الذي يفرض الوجود من طريق إخضاع الساسة والسياسة .

وما يهمنا الآن هو إبراز موقف العروبة وموقف المسلمين على السواء من العدوان على ليبيا العربية وسكانها المسلمين . ففي أزمة العدوان

الإيطالي وهي ما يهمنا هنا نجـد أنه ما إن كشرت إيطاليا عن أنيابها وبرزت باطماعها الاستعمارية التي تركزت وتبلورت في ليبيا يوم أعلنت على الأتراك حرباً، وداهمت طرابلس وبرقة بجيشها وأسطولها ومدافعها . ما إن فعلت إيطاليا ذلك حتى ثارت ثائرة الأمــة العربية ، والشعوب الإسلامية ضد المستعمر والاستعمار :

أبرق إمام اليمن (جلالة الإمام يحيى حميد الدين) ، إلى الخليفة ، معلناً عن استعداده للقيام بمائة ألف جندي ، تحت قيادته ما بين محارب ومتطوع . وأبرق امير مقاطعة نجد ، (الاميرعبد العزيز بن سعود) إلى السلطان يقول: إن مقاطعة نجد تفتخر اليوم، من كل جوارحها بأنها مقاطعة عثمانية ، ..... ، وانه وجميع القبائل التي تحت أمره ، مستعدون للزحف في ظل الأعلام العثمانية ، إلى حيث تأمرهم الدولة العلية [1] .

وفي جزيرة موريس، الواقعة شرق جزيرة مدغسقر تألبت الجماهير،

---

١ – الدكتور محمد فؤاد شكري : – السنوسية دين ودولة ص ١١٨ . واذا نحن نظرنا إلى الوضع السياسي للعالم العربي في ذلك الحين نجد ان المغرب الأقصى(مراكش) والجزائر وتونس، كانت جميعها تخضع لفرنسا ، وهي الدولة الاستعمارية التي سبق لها ان قايضت على هذا العدوان . وان مصر والسودان ومحميات جنوب الجزيرة العربية كانت تخضع للنفوذ الانجليزي . وبريطانيا هي الأخرى من الدول المستعمرة التي قايضت بعد ان دفعت ايطاليا على التسليم في مناطق اخرى. اما بلاد الشام وبلاد العراق ولبنان وفلسطين فهي ولايات عثمانية ، ومعنى هذا ان جميعها في حالة حرب مع ايطاليا باعتبارها جزءاً من الدولة العلية . وهكذا نجد ان اليمن ونجـد والحجاز وحدها هي الأقاليم التي تتمتع بالقدرة على التصرف في شئونها سياسياً ، وقد ابرقت اليمن وابرقت نجد تقدمان العون وتعرضان الجند والامكانيات .

وسارت في مظاهرة صاخبة ووقع شباب الجزيرة وأعيانها احتجاجاً على الاعتداء الايطالي على ليبيا ، رفعوه إلى وزير الخارجية البريطاني "[1] ، وتوالت الاحتجاجات وتتابعت من جميع اقاليم العالم الاسلامي ، حتى الهند والصين[2] الأمر الذي أقلق بال ساسة الدول الاستعمارية في كل مكان ، وأقض مضجعهم وحمل غبريال هانوتو (من وزراء خارجية فرنسا السابقين) على ان يؤكد ان إيطاليا بعدوانها على ليبيا لم تجن على نفسها وحسب ، وإنما جنت عليهم كذلك جناية لا تعرف غايتها او مداها "[3] ، ودفع ببريطانيا إلى ان تلح على جوليتي (رئيس وزراء ايطاليا) ان يسارع بانهاء الحرب مع تركيا كيفما اتفق تجنباً لما سببته هذه الحرب من اثارة للمشاعر في جميع انحاء العالم الاسلامي "[4] .

ولو أن الهياج الذي أصاب المسلمين والعرب في أنحاء المعمورة ، اقتصر على المظاهرات وحدها وعلى الاحتجاجات ترفع إلى حكومات الدول الأجنبية ، لما كان فيه ما يقلق بال هؤلاء الاستعماريين ، ولكن الأمر تعداه إلى التطوع ، وإلى الانخراط في صفوف المجاهدين ، في تدافع حماسي رفع نسبتهم سريعاً في مطلع العام التالي (١٩١٢) إلى

---

١ ـ محمد الطيب الاشهب : برقة العربية امس واليوم ص ٣٤٨ و ٣٤٩ .
٢ ـ شكيب ارسلان تعليقاته على كتاب حاضر العالم الاسلامي ص ٣١٢ (الجزء الأول).
٣ ـ لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامي ص ٣١٢ ـ اول .
٤ ـ شكيب ارسلان : هامش ص ٣١٢ من حاضر العالم الاسلامي ـ اول .

ستة عشر الف متطوع[1] جاءوا من البلدان العربية ، ومن شتى الأقطار الإسلامية يوحّد بينهم الدين والعروبة أو من أجل الإسلام والعروبة والرغبة في الجهاد والحرص على الاستشهاد. يقول الأمير شكيب أرسلان في هامش له على كتاب « حاضر العالم الاسلامي » (ص ٣١٢) » : عندما كنا في معسكر أنور بعين منصور بأعلى درنه ، كنا نجد مجاهدين لا من برقة ، ولا من طرابلس فحسب ، بل من تونس والجزائر ، والمغرب الأقصى ، ومن السودان ، ومن مصر ، ومن الشام ، ومن بلاك الترك . وقدم علينا خمسون مجاهداً من بلاد الافغان » . وشكيب أرسلان عدا كونه ثقة ، فهو فيما يرويه شاهد عيان ، مدرك لما يقول . وهو لم يذكر هنا من متطوعي المسلمين غير العرب عدا الافغانيين والاتراك ، ولكن هذا لا يعني وجود متطوعين من غيرهما لأن ملاحظته منصبة كما هو بين في أولها على معسكر عين منصور بدرنه وحده وهذا ليس سوى واحد فقط من معسكرات كثيرة منتشرة في كل البلاد الليبية من السلوم في الشرق حتى حدود تونس في الغرب ، ومع ذلك فقد اجتمع في هذا المعسكر الواحد متطوعون من جميع البلاد العربية ومن غيرها من بعض الأقطار الإسلامية .

ولم يقف العرب ، ولا اكتفى المسلمون بالمظاهرات والاحتجاجات ، ولا شاركوا بالمتطوعين فحسب . وإذا كانت الحكومات العربية ، قد

---

١ – دكتور محمد فؤاد شكري: السنوسية دين ودولة ص ١١٨ .

منعت سياسياً من إبداء رغبتها بصفة رسمية ، فإن الشعوب العربيـــة ، والأمم الإسلامية ، قد سارعت بتكوين اللجان لجمع التبرعات والإعانات وأخذت تترى على المجاهدين في ليبيا ومصر والشام والعراق وسائر البلاد العربية ، ومن إفريقيـا وآسيا ومن الهند والأفغان وغـــيرها نقود كانت تتحول إلى أسلحة وذخائر ، وإلى أدوية واسعافات ، وإلى مؤن وملابس ، اعتمد الليبيون عليها لفترة من الزمـــن [1] . اعتماداً كبيراً [2] .

وكانت مصر وكانت تونس بحكم موقعهما الجغرافي من ليبيا ، مراكز تجميع لهذه الإعانات والتبرعات ، ومناطق تهريب للمتطوعين من العرب والمسلمين والأتراك . إلا أن مصر منهما بحكم وقوعها إلى الشرق من ليبيا كانت أوسع نشاطاً من تونس التي اقتصرت خدماتها على ما يقدمه الشعب التونسي ذاته ، والشعب الجزائري ، والشعب المغربي

---

١ ـ توقف سيل الاعانات والمتطوعين بفعل المستعمرين ولأسباب سيأتي شرحهـــا في المكان المناسب من هذا الكتاب .

٢ ـ يقول محمد الطيب الأشهب في « برقة العربية » ص ٣٤٨ - ٣٤٩ ما يفيد بأن مبالغ قد ارسلت الى اللجنة العليا التي تكونت بمصر لمساعدة عرب طرابلس (ليبيا) من اهل طرابلس لبنان ومن اهل دمشق ومن قضاء درعه التابعة لايالة سورية ومن اهل نابلس ومن حاكم قطر وامارة البحرين ومن مدغسقر ومن ملك وشعب الافغان ومن جاوة ومن بومباي ومن غيرها من البلاد الاسلامية.وقد ذكر مبالغ معينة وصلت من بعض هذه البلاد وكجزء من الاعانات والتبرعات التي ارسلت إلى ليبيا من بلاد الشرق عامـــة ، ولكنه لم يستطع كما يبدو من مدوناته فيه ان يلم بالرقم الاجمالي لمجموع هذه التبرعات وان احال على مصادره وهي الجرائد المصرية في سنتي ١٩١١ و ١٩١٢ ولاسيا جريدة المؤيد منها بالذات .

وحدهم . فتكونت بمصر اللجنة العليـــا لمجاهدي ليبيا برئاسة الامير عمر طوسون ، فكانت هذه اللجنة نشطة جمة النشاط في عملها الكبير وكان من بين عملهـــا تلقي الإعانات والتبرعات من سائر البلاد العربية (في المشرق) ومن كل البلاد الإسلامية الواقعة خلفها وتحويلها إلى الليبيين . كما كانت جمعية الهلال الاحمر المصري التي تكونت برئاسة الشيخ علي يوسف هي الاخرى ذات نفع كبير في تقـــديم الادوية والضمادات التي كانت تحصل عليها من مصر وبقية البلاد العربية ، كما كان لعمل الوحدات الطبية التابعة لها أثره الانساني النبيل [1] يضاف إلى هذا جميعه ان كثيراً من القوات التركية قـد تسربت إلى ليبيا ، وقـــد جاء جميعها من طريق مصر وتونس ، وكان تسللهم يتم بمساعدة الأهالي وبمساندتهم وذلـــك رغم مناوأة السلطتين الفرنسية والإنجليزية ومقاومتهما لذلك .

ولم تهمل الصحافة العربية ولا تقاعس الأدباء العرب ، ولا الشعراء عن أداء الرسالة بل إنهماشاركا في المعركة بصورة فعالة وجدية، فالصحافة العربية استطاعت أن تؤدي رسالتها فتستثير الضمير العالمي ضد العدوان الايطالي وما صاحبه من وحشية ، فكتبت عن المآسي والقسوة التي كان

---

١ – يذكر الطيب الاشهب ، وشكيب ارسلان ، وفؤاد شكري ، وغيرهم ؛ من المعلومات ما يفيد بأن البعثات الطبية المصرية كانت تفوق عدة اطباء ، البعثات التركية ذاتها ؛ وانها كانت لذلك تقوم بالعبء الأكبر من اسعافات الميدان .

الجيش الايطالي يأتيها، والوحشية التي كان يرتكبها في حربه بليبيا، كما كتب صحافيون إنجليز، وفرنسيون، ونمساويون، وألمان، و ...الخ [1].

ولقد أثار ما كتبه الصحافيون في الشرق، وزملاؤهم في الغرب، الضمير العالمي بالفعل، وكانت هزتهم سبباً آخر حمل الساسة الانجليز وغيرهم على الضغط على إيطاليا لقبول فكرة الصلح. ولكن اذا كان الضمير العالمي قد عجز فلم يهزم إيطاليا في حربها العدوانية سنة ١٩١١ كما استطاع أن يفعل في قضية السويس سنة ١٩٥٦ وفي قضية كوبا سنة ١٩٦١ فلأنه كان حينذاك ضعيفاً لا سلطان له يؤثر به على الساسة والسياسة وان كان مع ذلك قد أخافهم.

وحتى الشعر والادب قام بدوره في إلهاب الحماسة واستثارة النفوس والتنديد بالظلم والظالمين والمستعمر والاستعمار [2].

---

١ – شكيب ارسلان : حاضر العالم الإسلامي من ص ٧٢ الى ص ٧٦ من الجزء الثاني.

٢ – يقول محمد الطيب الأشهب في « برقة العربية » ص ٢٨٥ ما يلي: « ولم يتأخر الكتاب والشعراء من إخواننا الشرقيين كالرصافي والزهاوي الشاعرين العراقيين، وحافظ ابراهيم وعبد الحليم المصري الشاعرين المصريين واضراب هؤلاء من شعراء الشام وبقية شعراء مصر والعراق. وهناك من الكتاب الاستاذ الكبير علي يوسف، والاستاذ العظيم عبد العزيز جاويش، والدكتور محمد بك أبو شادي، ومن على شاكلتهم من جميع الكتاب الشرقيين فقد ادوا واجبهم نحو إخوانهم الليبيين واشادوا بأعمالهم وشجعوهم في عملهم عند ما كان الليبيون هم الميدان الأول لفضائح الغربيين، والمسرح الأول الذي مثلت عليه فظاعة الاستعمار الوحشي فأنشد الشعراء قصائدهم بدوافع الغيرة وكتب الكتاب ما اوحاه لهم الضمير بحافز الوطنية، وخطب الخطباء بمنطقهم السليم وكلماتهم الحادة التي كانت تصدر من قرارة النفوس الطاهرة التي لم تدنسها السياسية. وكانت الصحف تنشر كل ذلك ...الخ ». ولما في الشعر من إيجاز بليغ وتصوير دقيق للمشاعر والاحاسيس=

مما تقدم يتضح أن إيطاليا بعدوانها الغاشم ، وجيشها الاستعماري ، وتهاونها ، واستخفافها بشأن الخلافة الاسلامية ، والمشاعر القومية للأمة

= فاننا سنكتفي بأمثلة منه في هذا الهامش .فمماقاله الرصافي شاعر العراق :

الا انهض وشمر أيها الشرق للغرب ... وقبل عرار السيف واسل هوى الكتب
ولا تغترر إن قيل عصر تمدن ... فقد بان ما قالوه من اكذب الكذب
ألست تراهم بين مصر وتونس ... أباحوا حمى الإسلام بالقتل والنهب
وما اقصد الطليان بالذنب وحدهم ... ولكن جميع الغرب اقصد بالذنب
فلولاهم لم ينقض العهد ناقض ... ولا ضاع حق في طرابلس الغرب
بلاد غدت في الحرب تندب اهلها ... فتبكي وتستبكي بني الترك والعرب
قد اغتالها الطليان وهي بمضجع ... من الأنس لم يفضض برعب على الجنب

يعز علينا اهل برقة إنكم ... تدور عليكم بالدماء رحى الحرب
وإنا اذا ما تستغيثون لم نجد ... اليكم على بعد المسافة من درب
وقد علم الاعداء أن سيوفنا ... تململ في الاغماد شوقا الى الحرب

وما نحن الا الليث شدت قيوده ... والقى حيا شبله في فم الذئب
يرى الشبل مأكولا فيزأر موثقاً ... ويضرب كفيه على الارض للوثب
فلا يستطيع الوثب الا تمطياً ... وزأرا وانشاب المخالب في الترب

وهذه الأبيات الثلاثة الاخيرة بالذات تصور تصويرا واقعياً حالة البلاد العربية الواقعة تحت النفوذ الإستعماري الغربي او التركي فهي تريد ان تقدم على شيء عظيم جداً غير انها كالليث الذي لا يملك الا أن يتمطى في قيوده المضروبة حوله وحسب .

ومما قاله فؤاد (باشا) الخطيب يستنهض الهمم ويدعو للجهاد : =

العربية ، وبتحديها السافر للعروبة والاسلام ، وللضمير الانساني الواعي قد أثارت الوادع فيهم ، وايقظت النائم منهم ونبهت الغافل من شعوبهم

= فيم الجمود وجرعاء الديار دم الحرب، الموت ، اين السيف والعلم ؟
يا آل عثمان من ترك ومن عرب هبوا فقد صرخت تحت الثرى الرمم
« الله اكبر » اني قد سمعت لها صوتاً تزلزل منه البيت والحرم
يا للخلافة قد ضاقت محارمها يا للمروءة والمظلوم متهم !!

صونوا طرابلس الغرب ارحموا بلدا حامت على اهله العقبان والرخم
فالارض راجفة والشمس كاسفة والبر مضطرب والبحر مضطرم
لهفي على الشرق قد زالت مهابته لهفي على المجد كيف المجد ينهدم
يا ايها العرب الاحرار هل وهنت تلك العزائم والاخلاق والشيم ؟

لا تجعلوا القول عوناً في الخطوب لكم اين الفعال وماذا ينفع الكلم !
يا صاحب السيف والآجال واحدة أسرع الى الحرب لا زلت بك القدم
يا صاحب المال والأموال بائدة بادر الى البذل لا ضاقت بك الهمم

ومما قاله احمد الكاشف بن ذي الفقار :

لحقت بتونس والجزائر بغتة مراكش فليبكها الباكونا
وابت على العادي طرابلس وما اتخذت سوي مهج الاباة حصونا
عربية زهراء يحمي خدرها عرب كما تحمي الليوث عرينا
يا اخت مصر وفي حشاها جمرة لبيك حتى يكتفي الداعونا =

فهب الشرق جميعه ينفض عنه غباراً تراكم عبر الزمن ، وينضو عنه سرابيل الجهل وظلماته ، فكان خطوها السياسي لذلـك شؤماً على المستعمر وعلى الاستعمار في جميع البلدان . فما إن حملت ليبيا

= بعثت إليك بزادها وتود لو بعثت إليك الجند مبتدرينا
والنيل لو ملكت أمنته جرى خلف القلوب مودة وحنينا

ومما قاله حافظ براهيم شاعر هذا النيل :

طمع ألقى عن الغرب اللثاما فاستفق يا شرق واحذر أن تناما
واحملي ايتها الشمس الى كل من يسكن في الشرق السلاما
واشهدي يوم التنادي أننا في سبيل الحق قد متنا كراما

احرقوا الدور ، استحلوا كل ما حرمت (لاهاي) في العهد احتراما
بارك المطران في اعمالهم فسلوه بارك القوم علاما ؟
أبهذا جاءهم انجيلهم آمراً يلقي على الارض السلاما ؟
كشفوا عن نية الغرب لنا وجلوا عن أفق الشرق الظلاما
فقرأناها سطوراً من دم أصبحت تلتهم الشرق التهاما

اعلنوا الحرب واضمرنا لهم اينما حلوا هلاكا واختراما

وليس هذا سوى قليل من كثير انشده الشعراء في ذلك العصر نكتفي به لأن فيه ما يكفي لإيضاح الفكرة التي قصدنا ابرازها ، والمتمثلة في ترديدهم لرجع صدى العدوان الايطالي على ليبيا الارض العربية في نفوس الامة العربية .

مشعل الحرية الأحمر وأشهرت السلاح ، وما إن استمات أهلها في الدفاع عن وطنهم وحريته حتى تعلمت الشعوب أن المستعمر وان قوي ضعيف وأن الشعوب وان ضعفت قويـــة، فتتابعت الثورات في العالمين العربي والاسلامي ، وتلاحقت الحركات التحررية [1] ، وبعد كر وفر ، وجزر

---

١ - ذلك ان ليبيا وحدها من بين الأقطار العربية التي امتد إليها الاستعمار بزعانفـــه هي التي كافحت قواته ، وناضلت في سبيل حريتهـــا فتره طويلة من الزمن امتدت لأكثر من عشرين سنة ، فكان امتدادها زمناً احد العوامل الهامة في إذكاء شعلة الحماسة والوطنية إلى الحد الذي ايقظ العرب من غفوتهم ، وجعلهم يراجعون رضعهم السياسي القومي من سائر القوى الاجنبية التي كانت تحتل بلادهم وتسيطر عليها . صحيح ان الجزائر من بين مدن البلاد العربية ، وقفت قبلها في وجه المستعمر وقاومت نفوذه بضع سنين ، ولكن ذلك حدث منها في وقت مبكر بعض الشيء لم يكن العرب فيه قد صحوا من غفوتهم بعد . وكانت الجزائر هي اول بلد عربي يخضع لمستعمر اجنبي بقوميته ودينه معاً فكانت بذلك تجربة اولى لم تسبق بسواهـــا وجهل العرب لذلك خطورتها ونتائجها ، اما ليبيا فقد كان الاعتداء عليها بعد ان خضعت عدة بلدان اخرى وبعد ان نشأت نزعة القوميتين التركية والعربية ، وتباينتا اتجاهـــاً وتصادمتا فكرة مما جعل العرب ينظرون إلى الحكم التركي على انه ضرب من ضروب الاستعمار لبلادهم وشعوبهم لا سيما بعد أن وقف دعاة ومعتنقو القومية التركية الطورانية من قضية ليبيا ذلك الموقف السلبي الذي جعلهم يتخلون عن ليبيا في وقت لم تكن فيه المقاومة قد انهارت وقبل أن تمتلك إيطاليا من من هذه البلاد شيئاً اكثر من بضعة مدن على الساحل . وفي وقت كان العرب الليبيون فيه اقوى مقاومة من الأتراك في البلقان . فثار شريف مكة على الاستعمار التركي وثارت معه بلدان الشام والعراق ، وحاول جميعها التحرر من نير الاستبداد العثماني ،ولكن ثورته سرقت فكانت النتيجة اتفاقية ساكس بيكو واستبدال سيد بسيد ومستعمر بمستعمر في سوريا ولبنان والاردن وفلسطين والعراق، وثارت مصر من بعد ذلك سنة ١٩١٩ وامتدت ثورتها بين مد وجزر إلى سنة ١٩٥٢ وتوالت ثورات البلاد العربية ضد المغتصب الدخيل وكانت الحرب الليبية هي الشرارة ، وكانت هي الصرخة التي ايقظت العرب والشرق واعطته مثلاً من نفسها على قوة التصميم ومداه .

ومد ، وفشل ونجاح ، وعت الأمة العربية ذاتها ، وأدركت حقيقة قوتها فتمكنت من أن تفرض إرادتها ، وتحكم نفسها إلا في بعض مناطق منها لا يزال الاستعمار فيها ينازع البقاء ويكاد يلفظ أنفاسه الاخيرة ، وستزهق روحه فيها عن قريب ان شاء الله تعالى .

صدى الحروب بين الاتراك

المفروض أن لا أفصل من حيث العنوان الفرعي بين صدى هذه الحرب في العالم الإسلامي ، وبين صداها في الاتراك لأنهم هم أيضاً من المسلمين ، بل هم ممثلوه وفيهم يومذاك خلافته . ولكنني آثرت ان افعل ذلك تمشياً مع التيارات الفكرية التي كانت سائدة آنذاك في المملكة العثمانية وبين مواطني ورعايا هذه الدولة الكبيرة المتداعية في نفس الوقت . والتيارات الفكرية التي سادت واعتنقوها آنذاك ثلاثة وهي :

أولاً : الفكرة الاسلامية الشاملة .

ثانياً : الفكرة العربية الخالصة .

ثالثاً : الفكرة التركية الخالصة أو الطورانية .

والفكرة الأولى من هذه الثلاث تحتضن الاثنتين الأخريين معاً ، وبينما لا يفصل ثانيتهما عن أولاهما عدا رد الفعل الناشىء عن ظهور

الثالثة فان هـذه الأخيرة تناهض كلا الفكرتين معاً ولا تتمشى مع أي منهما أو تلتقي بها[1] .

وفي مطلع الفقرة السابقة لهـــذه أبرزت في اختصار شديد اتجاه الفكرتين الأولى والثانية ، فلا أرى لذلك داعياً للتحدث عنهما هنا مرة أخرى ؛ أما الفكرة الثالثة فتقوم على أساس الرابطة الدموية للأتراك بالمغول والتتر أصل القبائل العثمانية وقد جرها هذا إلى التنكر للروابط الاخرى بالأمة العربية ، وقد ذهب المغالون فيها إلى حد المناداة بالتخلي عن الألفاظ والتراكيب العربية في اللغة التركية ، وإلى حد التغني بأعمـال جنكيزخان وهولاكو باعتبارهمـا بطلين من ابطال القومية

---

١ ـ ذلك أن الدعوة الإسلامية تقوم على رابطة الدين وهذا يشمل التركي شموله للعربي والهندي وغيرهما فهي تساوي بينها في الحقوق وفي الواجبات وفي كل شيء ، ويحرص عليها انصار فكرة استمرار الخلافة الاسلامية من سائر الشعوب ويدعو لها الخليفة ومشايعوه من الاتراك وغيرهم وتحمل لواء الدعوة لها الجامعة الاسلامية ، وحتى عهد الانقلاب العثماني كانت هذه الفكرة هي اقوى الثلاث نفوذاً وتأثيراً . والقومية التركية لم تنشأ في الحقيقة الا في شكل تمرد على سلطان الخليفة الديني الدنيوي وقد كان من الممكن ان لا تتجه هذا الاتجاه القومي لو لم يكن انصار فكرة الخلافة يعتمدون في دفاعهم عنها وتشبثهم بها على ان الأخذ بالنظام الوضعي (الدستوري) سيقلب الخلافة ملكاً ويؤدي هذا الى تقلص الامبراطورية عن الاراضي غـير التركية جميعها فكانت القومية التركية لذلك كذلك . اما القومية العربية ذاتها فقد تمسكت بفكرة الاسلام ولم تحاربها لأن اللغة هي لغة القرآن . ولكنها قاومت القومية التركية حينما قصد اصحابها محاربة العربية حتى في اللغة محاولين تتريكها ولو ادى ذلك الى نبذ الحرف العربي والالفاظ العربية التي دخلت التركية عبر الزمن هي الاخرى حوربت في التركية وهي لم تفعل ذلك إلا للتخلص من الخلافة وسلطانها الشرعي الالهي وغالت في ذلك الى حد العمل على تصفية الامبراطورية العثمانية لتبقى بعد ذلك تركيا خالصة للأتراك .

الطورانية [1].

ولم يكن من السهل التعرف على تاثير العدوان الايطالي في أصحاب ذلك الاتجاه في مبدأ الحركة لأسباب ليس أقلها أنهم كانوا لا يستطيعون المجاهرة برأي يخالف رأي عامة الشعوب الإسلامية ولا إن تنكرهم للعرب وتنصلهم من قضايا العروبة في ظرف كهذا كان سيؤخذ على أنه طعنة في جنب الوطن ذاته ، وخذل لسيادة الدولة ، تركيةً كانت هذه الدولة أو عثمانية مسلمة، غير أن نظرتهم التركية الخالصة ما لبثت أن وجدت طريقها في الأحاديث الخاصة ، والمداولات السرية فيما بينهم ، وفيما جرى بينهم وبين ساسة بعض الدول الممثلين لها الآستانة [2].

أورد ساطع الحصري في ص ١٨٦ من كتابه « البلاد العربية والدولة العثمانية » ما يلي : « وقد كتب بومبار [3] في تقريره المؤرخ ١٥ ــ ٥ ــ

---

١ ــ راجع حول هذا الموضوع : الامير شكيب ارسلان في تعليقاتــه على حاضر العالم الاسلامي من ص ١٥٧ إلى ص ١٦٠ (الجزء الأول) ، ساطع الحصري « البلاد العربيــة والدولة العثمانية » ص ١١٨ إلى ص ١٤٠ من الطبعة الثانية .

٢ ــ يجدر بنا هنا ملاحظة ان معتنقي هذه الطورانية المتطرفة لم يكونوا في ذلك الحين أغلبية الشباب التركي المسيطر على الحكم ،فقد كان هناك من بينهم من يعتنقها على اعتدال يجعله يميز بين قومية تركية تحقق للاتراك حياة ديمقراطية كريمة ، وبين قومية تركية تعمل لتصفية تركة الامبراطورية الثقيلة وهؤلاء هم الغالبية العظمى التي يخشاها اصحاب القول بالتصفية الكاملة والذين سنقدم نموذجين منهم هنا .

٣ ــ سفير فرنسا في الآستانة آنذاك .

١٩١٢ وقائع ملاقاته مع الصدر الأعظم سعيد باشا [1] ففهم منه أن السفير قال للباشا : إني استغرب عدم اكتراث الدولة باستيلاء الطليان على الجزر الإيجية ، لأني أعتقد أن توسيع نطاق النزاع بهذه الصورة ، من شأنه أن يثير مشاكل دولية هامة ، تعرض كيان السلطنة للخطر ، ولا سيما أن الاحوال الداخلية ايضاً لا تسير على ما يرام . ولذلك أرى من واجب الصداقة ان انصح الحكومة العثمانية باللجوء إلى طريق المصالحة » .

« وأما الصدر الاعظم ،فقد قال له : أنا ايضاً أرى رأيكم تماماً ولكنني لم استطع ان اقنع البعض من وزرائي ،ولا سيما وزير الخارجية عاصم بك. ثم اخذ يشرح للسفير وجهة نظر الوزير المشار إليه ووجهات نظر بعض الوزراء الآخرين . إنهم يقولون : إن هجوم إيطاليا على طرابلس الغرب، أوجد هياجاً شديداً بين العرب بوجه خاص ، وبين المسلمين بوجه عام . والحكومة مضطرة إلى أخذ هذه الاحوال بعين الاعتبار ، واذا لم تدافع عن المسلمين التابعين لها ، فستتعرض حتما الى هزات ، وثورات اشد عنفاً وأكثر ضرراً من الحرب التي يراد الانتهاء منها » .

رأي الوزارة الرسمي رأي يعكس اتجاه القومية التركية الخالصة وينم عنها هنا لفظ « مضطرة » وعبارة «واذا لم تدافع » وعبارة «المسلمين التابعين لها » . اي والله ، ليس المسلمون سوى تابعين للدولة التي تؤمن وزارتها بالقومية التركية أكثر مما تؤمن بالإسلام ذاته . إنها لا تعتبر نفسها

---

١ — وهو الذي تولى الوزارة بعد استقالة حقي باشا (راجع ص ٥٩ من بداية المأساة) .

جزءاً من هؤلاء المسلمين ، لأن الاسلام غير تركي ، وبعبارة أدق يبعد الإسلام بالاتراك عن الطورانية .

وفي ص ١٨٧ من نفس الكتاب أورد الحصري أيضاً : « وقد كتب بوميار في تقريره المؤرخ في ٢٥ ــ ٥ ــ ١٩١٢ ، تفاصيل ملاقاته مع عاصم بك وجاويد بك: أنه اقترح على وزير الخارجية عاصم بك حل القضية بطريقة تشبه الطريقة التي كانت اتبعت في قضية البوسنة والهرسك سنة ١٨٧٨ وشرح ما يقصده من ذلك بشيء من التفاصيل وعاصم بك أظهر ميلاً إلى قبول ذلك . فقال : ــ سأعرض القضية على الصدر الأعظم ، واذا وافق عليها فسأرفعها إلى مجلس الوزراء . وأضاف إلى قوله هذه الملاحظة التالية : ولكن الحكومة لا يمكنها أن تقدم بمثل هذا المشروع من تلقاء نفسها فالاقتراح يجب أن يأتي من الدول الأوربية وفضلا عن ذلك فإن الدول المذكورة يجب أن تضغط على الحكومة العثمانية لحملها على القبول».

وهذه الملاحظة من وزير الخارجية التركي للسفير الفرنسي وحدها تحمل من الدلالة ما يكفي لإيضاح موقف الفكرة التركية الطورانية من العدوان الإيطالي على ليبيا ومن موقفها من قضايا العروبة والإسلام .فهي تبدو هنا وعلى لسان « عاصم بك » من الضعف بحيث تعجز عن مجابهة الفكرتين الأخريين وجهاً لوجه، ولذلك فهي تستعدي عليهما معاً النفوذ الاجنبي ليفرض عليهما إرادة تتمشى وفكرة القوميين الأتراك بل إنها هي ذاتها فكرتها التي تعمل لأجلها .

وهذه الملاحظة من «عاصم بك » ممثل الدولة وراسم سياستها الخارجية تنم عن رغبة مؤلمة مخزية هي أن صدى العدوان الإيطالي على ليبيا كان سلبياً تمام السلبية بالنسبة إلى دعاة القومية الطورانية من الاتراك فإن تحدي الخلافة والإسلام ، والاعتداء على أرض عربية كانت ولمئات السنين جزءاً من الممتلكات العثمانية لم يهز وتراً واحداً من إحساس دعاة وأنصار القومية التركية.. فلتذل الخلافة، والخليفة، وليرغم المسلمون، وليهزموا، ولتفقد العروبة أرضاً من أراضيها وليستعمر شعب من شعوبها ما دام ذلك جميعه يخدم الفكرة التركية الطورانية ويزيد من نفوذها ويهزم الفكرتين المناوئتين لها فيما يفقدانه من أرض عربية وعرب مسلمين .ففي هذا كسب لها ولا بأس أن يكون على حساب الوطن وكرامة الدولة .

صدى العدوان في إيطاليا ذاتها

بالرغم من حداثة إيطاليا كدولة فان الحرب التي أعلنتها إيطاليا على تركيا من أجل الاستيلاء على ليبيا واستعمارها ليست هي الحرب الاستعمارية الأولى لها ، وذلك لأن لهذه الدولة تجربة سابقة في إريتريا والصومال ، وقد خرجت إيطاليا من هذه التجربة بهزيمة عدوة وبنادير وبمآس اقتصادية وصعوبات مالية ثقل حملها على الايطاليين ؛ لذلك كانت إيطاليا كدولة ، والايطاليون كشعب يدركون ما ينتظرهم وراء هذا

القرار الخطير والخطوة الاستعمارية كل أو بعض الادراك .

وقد عرفت إيطاليا الفكرة الاشتراكية الماركسية واعتنقتها جماعات فيها ، وهذه الفكرة الاشتراكية التي عرفتها إيطاليا سنة ١٨٩٢ [1] تناهض الرأسمالية ، وتقاوم تخطيطاتها الاقتصادية ، وتحارب نفوذها السياسي فكان لا بـد وأن تحارب الجماعات الاشتراكية فيها فكرة التوسع الاستعمارية الجديدة لذاتها . وكانت هزائم اريتريا وتضحيات عامة الشعب الايطالي من أجلها سنداً ترتكز عليه في حملاتها ، ونقطة تنطلق منها في مهاجمة فكرة العدوان من أجل الاستعمار ومصلحة المستعمرين . ولكن هذا لم يحدث ، في البداية على الأقـل ، فقد كان رأي كلاؤديو تريفس Claudio Treves ليلة الاعتـداء على طرابلس بالذات ورأي توراتي نفسه (زعيم الحزب) مشوشاً وحزبياً لا شيوعياً فهو يرى أن : « ... على الاشتراكيين الماركسيين أن يكونوا الآن وأكثر من أي وقت مضى جوليتيين ، يجب علينا أن نحتفظ بجوليتي ونربطه بنا ، فنفرض عليه بذلك مساندتنا فهو لا يزال مقيـداً بسياسته الحرة ذات الاتجاه الاشتراكي .... إذا نحن تركناه فسيقع في أيدي الجماعات الحزبية

---

١ – كان فيليب توراتي Filippo Turati قد اقترن بآناكوليشوف Anna Kuliscioff ، وهي فتاة روسية اعتنقت الماركسية . وفي سنة ١٨٩٢ اسس مع بعض رفاقه بمدينة جنوة حزباً سياسياً اشتراكياً إيطاليا . وقد كان حوّل في السنة التي قبلها مجلة Cuore e Critica إلى مجلة Critica Sociale وقد اصبحت هذه المجلة لسان حال الحزب واستمرت كذلك الى سنة ١٩٢٦ حينما قضى عليها وعلى الحزب معا الفاشستيون .

الأخرى ' وسينهج حينئذ سياسة معادية لنا » . ولولا آنا كوليشوف التي احتدت معهما في النقاش حتى ألزمتهما في النهايـــة بالالتزام بالاتجاه المركسي الذي تعتنقه وتؤمن به لخرجت صحف الاشتراكيين ولا سيما L'avanti التي يصدرها تريفس تمجد جوليتي وتسبح بما حققه من امتداد بالاشتراكية إلى طرابلس وبما يعنيه هذا العمل من كسب للقضية العمالية العالمية [1] .

وحتى موسوليني الذي كان اشتراكياً وثورياً متطرفاً هو الآخر لم يناهض الناسيوناليست ليقاوم الرأسمالية في ذاتها وإنما : « ... بيننا نحن الاشتراكيين والناسيونالست يوجد هذا الاختلاف ، هم يريدون إيطاليا واسعة ، وأنا أريد إيطاليا مثقفة غنية وحرة . إنني أفضل أن أكون مواطناً دانمركياً على أن أكون من رعايا الإمبراطورية الصينية .... لو أنني أعتنق فكرة عالمية الوطن والثورية لقلت في حملة ليبيا ما قاله المسيحي حين تدهور الامبراطورية الرومانية : « وماذا يهمني من انهيار الدولة الرومانية ما دام سيرتفع على انقاضها صليب المسيح ؟ » .

وقد كان علي أنا أيضاً لو كنت كذلك أن أقول إنه إذا كانت ايطاليا الرسمية ستتورط في قضية ستمتص دماءها ومالها فإنها بذلك ستكون أقل مقاومة لنا في نشر مبادئنا وستضعف أمام الثورة . ولكن بما أنني إيطالي

---

١ - Margherita G. Sarfatti : — Dux. Pag. 130,131.

وأحب الوطن الذي فيه ولدت ، والذي أتكلم لغته ، فإنني كإيطالي صالح أعرض مناهضتي لحملة ليبيا على أساس اقتصادي وجغرافي لما قد تتعرض له بلادي في مصالحها التي تتعلق بمصلحة العمال انفسهم ... الخ » [١]

ان موسوليني الاشتراكي هنا غير ماركسي الاتجاه ، فهو لا يؤمن بالأممية ولا بالثورة ولكنه وطني إيطالي يعارض حملة ليبيا لما قد تجره على بلاده من ويلات ومصاعب اقتصادية تعرقل تقدمها وتضر بقضية العمال . صحيح أن هـــذا القول كان منه دفاعاً عن اتهامه بالدعوة إلى الإضراب وهو ما لم ينكره ولذا فقد حكم عليه بخمسة أشهر حبساً من سلطات فورلي .

ولكن الاستعمار في أي مكان وزمان بقوته الرأسمالية يجد متى أراد العملاء الذين يسخرون أفكارهم وأعمالهم لخدمته ولتبرير سياسته حتى ولو كان عدواناً مسلحاً على الضعفاء من بني البشر . وفي إيطاليا رأسماليون هم القوة الحقيقية التي دفعت بالبلاد الإيطالية في هذا الاتجاه لمصلحتها ومن أجل توظيف رأسمالها ، وفي إيطاليا ساسة استعماريون خلب لبهم بريق الذهب وأعماهم نشدان العظمة فاندفعوا كالمسعورين وراء فكرة التملك والسيطرة .

فلما اقترب حين الدعوة الاستعمارية التي عمل لها ساسة إيطاليا طويلا

---

١ — Margherita G. Sarfatti : Dux. Pag. 134.

وأوشكت على التحقق ، وآن لعامة الشعب أن يعبأ تعبئة شاملة لاعتناقها، بحث الرأسماليون والساسة الاستعماريون عن العملاء والأنصار ووجدوهم في عدد لا بأس به من النبلاء والضباط [1] ، فمهدوا لاجتماعهم في الثالث من ديسمبر ١٩١٠ بمدينة فرنسزي Firenze في مؤتمر انتهوا فيه إلى تكوين اتحاد القوميين « L'Associazione Nazionalista » وقد أخذت هذه الهيئة الحزبية الجديدة على عاتقها مهمة تعبئة الرأي العام الايطالي لفكرة غزو ليبيا العثمانية وضمها كمستعمرة إلى الممتلكات الايطالية . ذلك ان الفكرة

---

١ – من بين هؤلاء ، اولئك الذين دعموا حركة الفاشست في إيطاليا فيما بعد وكانوا من ابرز قواده ، وقد كان ابرز الناسيوناليست عمــلا ونشاطاً وكتابة في الجريدة الاسبوعية « الفكرة الوطنية L'Idea Nazionale » التي صدر العدد الأول منها في اول مارس ١٩١١ فقــط فرانشسكو كوبولا Francesco Coppola ، انريكو كورادين Enrico Corradin ، جوليو دي فرانزي Giulio de Frenzi ، وهــو الاسم الذي حمــله قبل الثورة الفاشستيــة Luigi Federzoni ، روبرتو فورجيس Roberto Forges ، دافانساتي Davanzati ، ماوريزيو مارافيلا Maurizio Maraviglia ، باولو اركاري Paolo Arcari انريكو باروني Enrico Barone ، رودولفو بوتاكييري Rodolfo Bottachieri ، ماتيا كارونيو Mattia Carugno ، جوالتييرو كاستلــيني Gualtiero Castellini ، انتونيو شبينــو Antonio Cippino ، بيتروفوسكاري Pietro Foscari ، جالينجا ستوارت Gallinga Stuart ، جيوفاني جراسياني (وهو غير الذي عرفته ليبيــا بالجزار) كاميللو مانفروني Camillo Manfroni ، جوسيبي مانزوني Gioseppe Manzoni ، اوجو ماتيني Ugo Matini ، فنشنزو موزارا Vincenzo Mozara. ارنيستو سيتي Arnesto Setti ، برناردينــو فاريسكو Bernar Verisco ، فيتوريو فيتوري Vittorio Vettori وغــيرهم كثيرون ، وبعضهم من حملة الالقاب العالية كالبارون والماركيز ومنهم ضباط برتبة كابتن وكولونيل وفيهم شيوخ ونواب واساتذة جامعات .

التي جمعت بين هؤلاء الناسيوناليست والتي دعا إليها أنريكو كوراديني Enrico Corradini تقوم أصلا على قومية إيطالية تنادي لا بالسلم والحرية ، ولا بالديمقراطية ، ولا بالاشتراكية ،وإنما بالتسلط والاستعمار لرفعة شأن إيطاليا دولياً وإلى العمل على تقوية الدولة ، لتفرض سلطانها وارادتها فتوجه الشعب وتسيطر على التيارات الحزبية ، فتنقذ الوطن بذلك من حالة التفكك والتحلل التي يوجد عليها الشعب والحكومة معاً "[1] .
وأخذت هذه الجماعة تجوب مدن إيطاليا وقراها تعقد المؤتمرات ، وتلقي الخطب ، وتكتب المقالات ، مبررة حاجة ايطاليا الى التوسع والى الاستعمار والى المستعمرة .

وكان من الطبيعي أن يشتد الصراع بين الاشتراكيين الماركسيين وغير الماركسيين وهؤلاء الناسيوناليست على الصحافة وفي المنتديات الخاصة والعامة ، وفي المؤتمرات التي تعقد من قبل الطرفين ، وأن يتخذ هذا الصراع الجدلي أكثر من حجة في تبرير الغزو والدعوة إليه ، وفي مقاومة فكرة التوسع وتخطئتها . حتى إذا اقتربت مرحلة التنفيذ وحان حينها (سبتمبر ١٩١١) اشتد النزاع بين الفريقين واتخذ طابع العمل الإيجابي عند كل منهما : فدعا لاشتراكيون طبقة العمال (البروليتاريا) إلى

١ – وكانت هذه الدعوة إلى جانب الفكرة الاشتراكية هي نواة الفكرة الفاشستية التي عمل موسوليني سنة ١٩١٩ م، الدعوة اليها واستطاع ان يوجدها بما اقامه من مراكز I Fasci di Combattimento وقد اندمجت سنة ١٩٢١ هيئة الناسيوناليست هذه في الحزب الفاشستي واتحدت معه اتحاداً كلياً صهرها فيه .

الاضراب العام وحددوا لذلك موعداً ٢٥ سبتمبر ١٩١١ . فاستجاب له معظم العمال في مدن : روما ، بيروجيا ، بارما ، مونانتولا ، مودينا ، كابري ، بولونيا ، البندقية ، ميلانو ، فورلي ، فيرنسزي ، فرارا ، وفي عدد آخر من المدن الايطالية . وفي معظم هذه المدن عقدت المؤتمرات العامة ، وندد الخطباء الاشتراكيون فيها بالاحتلال ووصفوه بأنه عملية غير ديمقراطية ، وبانه اعتداء على حرية شعب مسالم لا مبرر له على الاطلاق ، و .... الخ . ونشط الناسيوناليست في مقاومة هذه الحملة وفي مناهضتها معتمدين في ذلك على إلهاب الحماسة الوطنية بإظهارهم لما في حركة الاستعمار من عظمة لإيطاليا واستعادة لمجدها الغابر ، وضغطوا على مسألة النزوح المخيف عن إيطاليا ، وبالغوا في مدى خطورة اختلال التوازن الدولي في حوض البحر المتوسط بالنسبة الى إيطاليا التي تطل عليه بشواطئها الثلاثة ، و ... الخ .

وكانت التهمة التي وجهت إلى الاشتراكيين المناوئين لحركة الاحتلال من القوة ومن الخطورة بحيث لم يكن من السهل عليهم ردها والوقوف في وجهها لمقاومتها: لقد نعتوا بعدم الحرص على رفعة الوطن، وبالتهاون في إعلاء شأنه بين الدول الكبرى في العالم الغربي ، سعياً وراء مبدإ مثالي خيالي لا يمكن أن يتحقق . ولذلك انهار الاشتراكيون واستكانوا وأصبحوا في موقفهم من قضية التوسع الاستعماري يتهربون من التهمة فيحبذونها ساخطين ، ويعارضونها محبذين «Contrariamente Favorevoli e Favorevolmente Contrari » .

وفي نفس الوقت قاومت الحكومة ذاتها حركه الاشتراكيين المناهضة لسياستها ، واستطاعت بالتدابير الحازمة ، وبالاحتياطات الشديدة الصارمة التي اتخذتها سلطات الأمن أن تقضي على المعارضة . وأن تفشل حركة الإضراب العام ، فتم لها بذلك السيطرة على الموقف ووقف وزير داخليتها يعلن ذلك في مجلس الوزراء الايطالي . وفعلاً فإن الداعين إلى الإضراب اضطروا إلى الإعلان عن عدم نجاحه وعلى إنهائه في صباح يوم ٢٨ سبتمبر . وفي اليوم التالي (٢٩ ــ ٩ ــ ١٩١١) توج الناسيوناليست الرأسماليون وساسة الإستعمار الايطاليون نصرهم باعلان الحرب ووقع عمانويل الثالث ملك إيطاليا هذا الاعلان [١] .

صدى العدوان في الأوساط الأوربية

يصف السير هاري جو هنستون العدوان الايطالي على ليبيا في كتابه:

---

١ ــ اعتمدت في كتابة هذه الفقرة على المراجع التالية وغيرها :

A) Gaetano Cicerone ; — La terza colonia italiana .

B) Benedetto Croce : — Come Naque e come mori il marchisismo in Italia .

C) Alberto M. Ghisalberti : — L'Italia moderna dalla riforma religiosa All'era Fascista .

D) Antologia della critica sociale .

« استعمار افريقيا The Colonization of Africa بأنه عملية إجرام سياسي A Political Crime ويقول عن الرأي العام الأوربي بأنه قد تأثر وجاشت عواطفه النبيلة ضد هذا العدوان ، غــير أنه لم يقدم مع ذلك على تقديم أي عون مادي أو معنوي للامبراطورية التركية . أما عن تأثير الرأي العام الأوربي ، فقد قال بأنه نشأ عن عدم قبول فكرة العدوان لذاتها « ففي زمن يسود فيه السلام بين الدولتين ، قدمت إحداهما (ايطاليا) ، إلى الأخرى (تركيا) انذاراً نهائياً Ultimatum بنته على أسباب واهية ؛ وقبل أن تتمكن هذه الدولة حتى من مراجعة نفسها لإصلاح اخطائها فصلت من ممتلكاتها ولايتان بقوة السلاح وحسب مما لا يبرر العدوان الايطالي لدى الرأي العام الأوربي »[1]

وربما كان ما احدثه العدوان الايطالي في الرأي العام الأوربي من استياء لا يعود إلى الغزو العدواني ذاته بقدر ما يعود إلى الوحشية والقسوة التي صاحبت الاحتــلال وأعقبته . ومهما يكن من أمر فقد دفع الرأي العام بمن رافق الحملة أو سبقها أو لحق بها من مراسلي الصحف ووكالات الأنباء الأوربية إلى الكتابة عنها كثيراً . فقد نقل إلينا شكيب ارسلان في تعليقاته على حاضر العالم الاسلامي[2] نماذج عديدة لما كتبه كل من : فرانسز ماكولا (انجليزي) وفون غوتنبرغ (الماني) وهرمان رنول (نمساوي) ومراسل لجريدة التايمس (لم يذكر

---

١ – ص ٣٤٢ من الترجمة الايطالية للكتاب بقلم Ugo Cavallero .

٢ – من ص ٧٢ الى ص ٧٦ من الجزء الثاني .

اسمه) ومراسل لجريدة الدايلي كرونكل (لم يذكر اسمه) والمسيو كوسيرا مراسل جريدة اليكسيور الباريسية (فرنسي) ومراسلا جريدة الدايلي ميرور المستر توماس كرانت والسيدة فرانك مـــاجي ومراسل وكالة رويتر المسيو راليس اشميد برتلت والمستر دانيس مراسل جريدة المورننغ بوست ، والمستر بنيت بورلي مراسل الدايلي تلغراف ومراسل جريدة فرانكفورتر تسايتونغ. وفيما نقل إلينا هذا الكاتب ما يكفي لإثارة الشفقة والرحمة في قلب كل إنسان سواء أكان أوربياً أم إفريقيـــاً أم غير ذلك .

ولكن الرأي الأوربي العام وإن سخط ، وإن استاء ، وإن عطف على تركيا المظلومة ، وليبيا الصريعة ، الا إنه كان كما سبق أن ذكرت من الضعف بحيث لم يستطع أن يؤثر على موقف ساسة تلـــك الدول ، الموالين للاستعمار والمشجعين له . فاستمرت إيطاليـــا في عدوانها وفي قسوتها وفي وحشيتها دون أن تلاقي من ساسة أوربا أي لوم أو تقريع يردعها عن التمادي فيما ترتكبه ضد الليبيين .

الليبيون وموقفهم من هذه الحرب

حينما أرادت بريطانيا أن تفرض حمايتها على الأراضي المصرية لم تأت إليها غازية محتلة ، وإنما جاءتها تساند الخديوي وتساعده على قمع

ثورة قام بها عرابي باشا ضد حكمه . وكانت وهي تتسلل تحاول جاهدة تجنب استثارة أهل البلاد الأصليين ضد تدخلها في إدارة بلادهم وضد فرض سلطانها عليهم متعللة بالاحتلال المؤقت الذي تستدعيه الظروف وتحتمه .

وحينما جاءت فرنسا إلى الجزائر لم تأتها مستعمرة ، وإنما جاءتها لتؤدب الباشا حاكم البلاد على تطاوله على ممثلها لديه . ولكنها حينما تمكنت من المراكز الاستراتيجية لم تبال بشعور الوطنيين نحوها فبرزت في ثوبها الحقيقي مما أيقظ الجزائريين ودفع بهم إلى مناوأتها لفترة من الزمن .

أما إيطاليا فلم تأت متسترة وراء أي عذر يبرر مجيئها للبلاد وقد جاءتها سافرة معلنة عن نياتها في التسلط وفي فرض الإرادة والسلطان على الليبيين والشعوب المتأخرة (وقد كانت شعوب الشمال الافريقي تغط في نوم عميق) لا يهمها من الصراع الواقع بين السلطان ومناوئيه شيئاً فهي قد تتحمس لهذا أو تتحسر على ذاك ، ولكنها قلما تتدخل في الصراع بين الجانبين ، لأن الأمر لا يعنيها ولا يمكن أن يغير شيئاً من واقعها الراهن . أما حينما يكون التحدي واقعاً عليها والاعتداء موجهاً ضدها كجماعة فإن الأمر يختلف ، فالسكوت عار ، والتخاذل ذل ، والاستسلام مهانة . وقد عرفت بريطانيا هذا الأمر من المصريين فتحايلت وداورت ولم تعلن يوماً عن حقيقة نواياها فلم تجد منهم تصميماً

على مناوأتها في السيطرة ولا اضطرت للدخول معهم في حرب شاملة صريحة . ولم تعرف فرنسا هـذا الأمر فأخطأت حتى بعد أن واتتها الفرصة وحالفتها الصدفة بتبرير الاعتداء على الجزائر ، ولذلك اضطرت إلى القتال والى فرض سلطانها بالقوة على الجزائريين . أما ايطاليا فلم يواتها الحظ ولم تخدمها الصدف ولم يكن لها من عمق النظر ما لبريطانيا، لذلك فشلت منذ البداية بل لعلها لم تفكر أبداً في إسدال أي ستر على حقيقة نواياها العدوانية فجاءت الى ليبيا معلنة أنها تريد أن تفرض نفسها على الليبيين في بلادهم ، فكان على الليبيين أن يسلموا بواحد من أمرين : فإما أن يخنعوا ويستسلموا لهذا السيد الجديد الذي جاء ليطرد من بلادهم السيد القديم ، تطبيقاً لمثل الحياد السلبي الذي يردده عامة الشعب : « اللي ياخذ أمنا هو أبونا »[1] ، وإما أن يقاوموا هذا الغاصب المحتل ويقاتلوه ويصدوه عن كل شبر من أراضيهم ووطنهم باعتباره غاصباً لشيء هم وحدهم أهله ومالكوه وليس للسيد القديم فيه من حق غير رضائهم به حاكماً عليهم ولبلادهم .

ومن الطبيعي أن ينهجوا ثاني السبيلين ، أولاً لأن هذا الغازي الجديد غير مسلم ، فهو يدين بغير دينهم ، وهم قد سبقت لهم مقاومة الفرنسيين في الجنوب لا لأنهم أجانب فقط ، ولا لأنهم غير مسلمين وحسب وإنما لأنهم ظالمون ومتغطرسون وغير إنسانيين في معاملتهم لمن يحاربون فيخضعون من الناس. وثانياً لأن تركيا بعد أن جهلتهم زمناً

---

١ – معنى المثل ان الذي يتولى حكم بلادنا له طاعتنا فلا داعي للمقاومة ما دام اللاحق ليس خيراً من السابق ولا العكس .

وتجاهلتهم فترة عادت فاعترفت لهم بحقهم في ممارسة السلطة وساوتهم بالأتراك فأصبح لهم في مجلس المبعوثان العثماني ممثلون ، وفي الجيش قادة وجنود وفي الادارة حكام كبار ومسئولون . وثالثاً لأن رأس هذه الدولة التركية هو الخليفة الذي يدين له المسلمون بالولاء ، ويروج الخروج عليه تمرداً على الاسلام وخروجاً عن المسلمين .

لهذا جميعه ، ولبوادر اليقظة الشعبية التي بذر السنوسي بزواياه وتعاليمها وجهود شيوخها بذرتها الأولى فقد هب الشعب الليبي جميعه ومنذ الوهلة الأولى للدفاع عن أرض الوطن ، وعن الحريات التي يقدسها والمبادىء التي يؤمن بها ويحيا من أجلها .

ومن الطبيعي أن لا يعرف الليبيون كثيراً من الدسائس والمؤامرات والاتفاقيات السرية ، ومن الطبيعي أيضاً أن لا يسمع سكان الدواخل وغير المهتمين بالاتجاهات السياسية الدولية، عن مقاصد إيطاليا العدوانية إلا النزر القليل الذي تردده الإشاعات وتتناقله الألسن في المنتديات الخاصة أو العامة .

والفئة القليلة من الليبيين التي أحاطت بشيء من نوايا إيطاليا كانت هي طبقة أهم الموظفين وكبار الشخصيات المتصلين بالعالم الخارجي، من طريق ما كانت صحافة العالم تردد صداه ، وتتناقله عن تصريحات الصحافة الإيطالية حول آمال وأماني الساسة الإيطاليين . وأفراد هذه الفئة كانوا يثقون في قوة الدولة العثمانية وحكمة رجالها بحكم أنهم جزء

منها ، ومن كان لا يثق منهم بها كان يداهن ويتظاهر بالوثوق فيها وبها ، لذلك لم يكن لهم حتى وقوع الاعتداء دور يذكر أو موقف ذو شأن في القضية الليبية . وكل ما كانوا يفعلونه أو يقدمون عليه هو مطالبة رجال الآستانة في برقياتهم ومذاكراتهم التي نشطوا في الأيام الأخيرة في إرسالها بضرورة تقوية الحامية ، وتحصين المدن ، ومد الأهالي بالسلاح ليتمكنوا من الدفاع عن الولاية العثمانية [1] . اما دور الليبيين الإيجابي في هذه القضية فيبدأ مع ظهور البوارج والطرادات الإيطالية على السواحل الليبية ، ومع ومع أول رصاصة أطلقت من العدو المعتدي على شواطىء هذه البلاد .

خاتمة الفصل

وخلاصة القول في هذا الفصل هو أن سياسة إيطاليا الاستعمارية لم تكن من النضج ، وساستها لم يكونوا على جانب من الإدراك المناسب لمثل هذه الميادين ، فأخطأوا في اختيار الطريقة والزمن ، ولم يتقنوا الأسلوب فأوقعهم ذلك الخطأ في ورطة سياسية مع شعبهم ذاته ، ومع الرأي العام الأوربي الذي أثاره عدوان غاشم وأسخطته وحشية فظيعة فنعتهم بأحط

---

١ – راجع على سبيل المثال لا الحصر برقية سكان طرابلس المنشورة في ص ٥٠ من « بداية المأساة » .

الصفات وأقذر ما يوصف به شعب ؛ وفي ورطة عسكرية مع العرب المسلمين في ليبيا كبدتهم كثيراً إذ جعلتهم يصطلون بنار حرب ضروس امتدت لفترة من الزمن تربو على العشرين سنة كاملة .

ولقد كان لهذا العدوان صداه المدوي في جميع الشعوب الشرقية ، والغربية ، عدا دعاة ومعتنقي الفكرة الطورانية الذين دفع بهم تعصبهم لقوميتهم وكراهيتهم للوضع الذي هم فيه إلى سلبية مطلقة غريبة ، وغرابتها في أنها صادرة عن الأتراك الذين حكموا هذه البلاد لمئات السنين وكانوا سادتها ومستعمريها .

وهذا الخطأ السياسي من جانب إيطاليا ، وهذا الموقف الغريب من جانب القوميين الأتراك ، هو الذي أيقظ العرب من سباتهم العميق ، وهو الذي أثار حفيظة الشعوب الاسلامية والشرقية في مجموعها ضد المستعمر والاستعمار من أي نوع كان ، تركياً أم إيطالياً أم انجليزياً أم فرنسياً ، أم غير ذلك . وهو الذي جعل العرب يوقنون بأن عليهم أن يعملوا معتمدين على أنفسهم ضد أعدائهم أياً كانوا وأياً كانت صلاتهم بهم .

لقد كانت الحرب الليبية وبالاً على المستعمر وشؤماً على الاستعمار في كل مكان . وكان انتباه اساتذة السياسة الاستعمارية إلى الخطأ الفاحش من قبل إيطاليا سبباً مباشراً في ضغط الدول الاستعمارية

على الوزارة الايطالية لإنهاء تلك الحرب مع تركيا كيفما اتفق ، ولكن ذلك حدث منهم بعد فوات الأوان فقد اندلعت النار التي اشعلتها الشرارة ، ولن تخفت هذه النار حتى تحرق المستعمرين في كل مكان .

للكتاب بقية في جزء تالٍ لهذا .

المؤلف

المراجـــع

١ ـ ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية .

٢ ـ محمد فؤاد شكري : السنوسية دين ودولة .

٣ ـ محمد فؤاد شكري : ميلاد دولة ليبيا الحديثة وثائق تحريرها واستقلالها .

٤ ـ محمود الشنيطي : قصة ليبيا .

٥ ـ الامير شكيب ارسلان : حاضر العالم الاسلامي جزء أول ـ ثاني .

٦ ـ الطاهر الزاوي : جهاد الأبطال في طرابلس الغرب .

٧ ـ محمد الطيب الأشهب : برقة العربية أمس واليوم .

٨ ـ انتوني جوزيف كاكيا : ليبيا في العهد العثماني الثاني (تعريب يوسف حسن العسلي)

9) Caetane Cicerone : — La Terza colonia italiana .

10) A Gaibi : — Manuale di storia Politico - militare della colonie italiane .

11) Giulio Bonaci : — Gli Ultimi giorni di Bengasi Turca .

12) Gen. Carlo Montu : — Storia dell'artiglieria italiana Part. III vol VI .

13) Treccani : — Enciclopedia italiana Vol XIX .

14) E. Prichard : — The Sanussi of Cirenaica.

الثمن (٣٥) قرشاً ليبياً

مطابع دار الغندور - بيروت